Perception of Mahatama Gandhi and M.A. Jinnah as Reflected in 'Ruhun Azeem' and 'al Quaid al Azam' of Abbas Mehmoud al Aqqad: An Analytical Study

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfilment of the requirement of the degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

By

Mohd Niyaz Ahmad

Under the Supervision of

Prof. F.U.Farooqi

Centre of Arabic and African Studies

School of language, literature and cultural studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi - India 110067

2012

إدراك المهاتما غاندي و محمد علي جناح كما يتجلى في "روح عظيم" و "القائد الأعظم" لعباس محمود العقاد دراسة تحليلية

بحث جامعي

لنيل الشهادة ما قبل الدكتوراه

الباحث

محمد نياز أحمد

تحت إشراف

البروفيسور فيضان الله الفاروقي

مركز الدراسات العربية و الإفريقية

مدرسة دراسات اللغة و الأدب و الثقافة

جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند

2012

DECLARATION

I declare that the material in this dissertation entitled ***"Perception of Mahatama Gandhi and M.A. Jinnah as Reflected in 'Ruhun Azeem' and 'al Quaid al Azam' of Abbas Mehmoud al Aqqad: An Analytical Study"*** submitted by me is an original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other University/Institution.

Mohd Niyaz Ahmad

(Research Scholar)

Supervisor
Prof. Faizanullah Farooqi
CAAS/SLL&CS/JNU

Chairperson
Prof. A. Basheer Ahmad
CAAS/SLL&CS/JNU

إهـــــــــــــــداء

إلـى

أبـي و أمـي و إخوتي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الدنيا مرت بأزمات كثيرة و شهدت تطورات بارزة في النصف الأول من القرن العشرين، فكانت مليئة بالتوتر و الحوادث و المفاجأة من يمينها إلى شمالها، و كأنما كان القرن العشرين قرن الثورة و النهضة من الناحية السياسية و الناحية الحضارية. و نتيجة لذلك، عهدنا في هذه الفترة من التقلبات على مستوى العالم ما لم نعهده من قبل و لابعد. في هذه الفترة رأت الدنيا الثورة الروسية و الثورة الصينية و الحروب العالمية الأولى و الثانية.

و كان وراء هذه التطورات و التغيرات كثير من الأفكار و الحركات الجديدة من الفاشية، و الماركسية والاشتراكية والقومية و اللبرالية كما أنها أوجدت مخترعات عديدة و آلات حربية. فكانت الدول تنافس فيما بينها في الاختراع و الجمع بآلات الحرب و أسباب القوة و الغارة.

و بجانب آخر، كانت الهند تعاني من مظالم الاستعمار و تقاوم الحكومة القابضة على خزانتها على مستويات مختلفة و بأساليب مختلفة، فكان في أبنائها من يؤمن بالعنف ضد العنف و القتال مع أعداء الوطن، و يقاتلون، فيقتلون و يقتلون، و كان منهم، على عكس ذلك و على عكس ما كان يحدث في العالم من الحروب و مظاهر

العنف، من يؤمن بسلاح يخافه عدوه و لايخافه نفسه، وكان يقاوم أعدائه ولكن لم تكن مقاومته مقاومة عنيفة، بل كانت سلمية، لم يمارسها قادة الدول و أبطال العالم في تاريخ حضارتهم. و هذه المقاومة السلمية قادت الهند إلى استقلالها في عصر كانت الدول و الأمم تؤمن بقوة الآلات و أسباب الحروب. و الذين سيروا الهند هذه المسيرة كان في مقدمتهم موهانداس كرم شاند غاندي الذي لقب بـ "مهاتما" (روح عظيم) و محمد علي جناح، القائد الأعظم و مؤسس دولة باكستان.

وهب المهاتما غاندي حياته لنشر سياسة المقاومة السلمية أو اللاعنف واستمر على مدى أكثر من خمسين عاما يبشر بها، وفي سنوات حياته الأخيرة زاد اهتمامه بالدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة وتألم لانفصال باكستان وحزن لأعمال العنف التي شهدتها كشمير ودعا الهندوس إلى احترام حقوق المسلمين.

وكان كل من غاندي و جناح أكثر شهرة من رجال شبه القارة الهندية في عهدهما بل إنهما من أعظم شخصيات العالم عبر العصور و القرون. كانت لكل منهما رسالة و فلسفة و فكرا خاصا، فكتبت عنهما كتب و مؤلفات و أجريت البحوث و الدراسات حول فلسفتهما و أفكارهما التي أنقذت الهند من براثن الاستعمار و غيرت منهج الفكر و أساليب المقاومة على مستوى العالم. و لم تكن مصر مختلفة عن سائر البلاد في التأثر بحركتهما في مقاومة الاستعمار و فلسفتهما السياسية و الإنسانية، فكتب

المصريون أيضا عن شخصيتهما العظيمة و أفكارهما السياسية و طرق معالجتهما الأوضاع السياسية و أساليب مقاومتهما الاستعمار البريطاني.

و كان ممن عاصروا هذين النابغتين في بلاد العرب عباس محمود العقاد الكاتب و الشاعر والناقد و المفكر المصري. وكان العقاد كثير الإنتاج، واسع الثقافة و عميق الفكر فكتب أكثر من مئة كتاب في مواضيع مختلفة. و من أشهر مؤلفاته سلسلة الكتب التي كتبها في سيرة رجال الدين بعناوين العبقريات و في ترجمة رجال الفكر في عصره و فيما قبله بعناوين مختلفة. و شعر أنه من الحق عليه أن يكتب عن غاندي و جناح و يبين ملامح العظمة الإنسانية فيهما، فكتب "روح عظيم المهاتما غاندي" و "القائد الأعظم محمد علي جناح".

و هناك عديد من الكتاب الذين تناولوا فلسفة غاندي و سياسة جناح و ألفوا كتبا في ترجمتهما و سيرتهما. ولا يزال الباحثون والدارسون يحاولون لإدراك فلسفة غاندي و فهم رسالته للإنسانية. ولكنه لم يحاول أي باحث محاولة فهم عبقرية غاندي و جناح من خلال الكتابات العربية و خاصة من خلال كتابات عبقري الأدب العربي في ذلك العصر عباس محمود العقاد. فأردت أن أتناول هذا الجانب من الموضوع و أقوم بالبحث لنعرف كيف تناول العقاد فلسفة غاندي و جناح و سياستهما و أفكارهما، و ماذا كتب عبقري الأدب العربي في هذين العبقريين و جعلت كتاباته موضوع دراستي و بحثي.

راجعت الكتب و البحوث المتعلقة بموضوع دراستي و التي حصلت عليها من الكمتبات العامة و مواقع الإنترنت. و لكنني ارتكزت بشكل ملحوظ على كتابي العقاد، و اعتمدت على محتوياتها، و قلما حاولت تحقيقها بمصادر أخرى، لأنني ما جعلت غايتي تحقيق كتابات العقاد، بل إنما أردت بيان آراء عبقري الكتابة عن العبقريين في السياسة و حاولت ادراك نابغتي الفكر و الثورة عن وجهة نظر نابغة الأدب و الفكر. و لذلك يحتوي البحث على آراء ربما لا يوافقها الواقع و لا يصدقها خبراء الموضوع.

و قسمت رسالتي إلى ثلاثة أبواب رئيسية، كل باب فيه عدة فصول. الباب الأول "عصر غاندي و جناح و محاولة فهمهما في مصر" يحتوي على بيان الأوضاع السياسية في الهند خاصة و في ما سواها عامة و التي نهض فيها غاندي و جناح. و قد ذكرت فيه اهتمام المصريين بمعالجة أفكارهما، و خاصة أفكار غاندي و فلسفته و ما كانت و لا تزال تكون من المحاولات لفهمهما في مصر و أشرت إلى المؤلفات و الكتب التي ألفها المصريون في نقدهما و تقديرهما.

و أما الباب الثاني فهو في غاندي، و فيه أربعة فصول، تشتمل على تعريف عباس محمود العقاد و كتابه "روح عظيم"، و تحتوي على بيان نشأة غاندي و العوامل المؤثرة في حياته، و مقاومته العنف و العدوان و جهاده في سبيل استقلال الهند، و إدارك فلسفة غاندي في " روح عظيم".

و الباب الأخير "محمد علي جناح في ضوء "القائد الأعظم" للعقاد" يحتوي على ثلاثة فصول. الفصل الأول في خلفية الكتاب "القائد الأعظم"، و الثاني في بيان محمد علي جناح كما وصفه العقاد في كتابه، و الفصل الأخير في المقارنة بين غاندي و جناح في ضوء كتابات العقاد.

و قد ساعدني على إتمام هذا البحث مشرفي الكريم الأستاذ فيضان الله الفاروقي بتوجيهاته و آرائه، و أرشدني إلى اتجاه صحيح كلما وجدت نفسي في حاجة إلى المشورة و المناقشة. فله جزيل الشكر و الامتنان، و أدعو له عيشة راضية في الجنان.

و أخيرا أقدم الشكر إلى أبي و أمي و سائر أسرتي، لمنحهم إياي فرصة البحث و الدراسة، و أشكر مؤظفي المكتبات العامة و أصحاب مواقع الإنترنت، من حيث وجدت الكتب و البحوث التي ساعدني على دراستي، و خاصة أصحاب مكتبة المصطفى الإلكترونية لتزويدهم من خلالها الكتب النادرة، و أشكر جميع زملائي و أصدقائي لمساعداتهم العلمية و العملية، و خاصة محمد شاه عالم، طالب الماجستير بجامعة الأزهر، مصر، و محمد ذكي الله و موسى رضا من زملاء الجامعة. و أشكر كل شخص ساعدني من ناحية من المساعدة، إلا صديقي محمد أشرف رضا، فإن صداقته و مساعدته وراء الشكر و الامتنان.

محمد نياز أحمد

الباب الأول

عصر غاندي و جناح و محاولة فهمهما في مصر

و فيه ثلاثة فصول

الفصل الثاني: العلاقة بين الهند و مصر في القرن العشرين

الوضع السياسي في الهند

الاحتلال البريطاني للهند: في نهاية عهد أورانك زيب وفي عهد من جاء بعده زادت الأطماع الأوروبية في خيرات الهند، وخاصَّة بعدما اكتشف البرتغاليُّون رأسَ الرجاء الصالح عام 1498م، حيث تابع البرتغاليُّون تقدُّمهم حتى وصلوا الهند بعد سنة، واستولَوْا على "غوا" على ساحل الهند الغربي، وأصبحت منذ عام 937هـ عاصمة للهند البرتغالية، ونشط الهولنديُّون كما نشط البرتغاليُّون مِن قَبْلُ، حتى استطاعوا القضاء على نفوذ البرتغاليين عند الساحل الغربي، عند مَلِيبَار، واتَّبعوا سياسة احتكاريَّة عدوانيَّة ارتكبوا معها أخسَّ الأساليب وأبشع الجرائم، وتحرَّك الفرنسيُّون إلى الهند، ولَحِقَ بهم الإنجليز حين استولَوْا على مضيق هُرْمُز في الخليج عام 1623م، وكان أهمَّ مراكز البرتغاليِّين.[1]

ورأت إنجلترا ما وصلت إليه كلٌّ من البرتغال وإسبانيا وهولندا، من الثراء والغنى وخيرات الشرق، فسال لعاب الإنجليز، الذين أسرعوا بدورهم باستصدار مرسوم مَلَكِيٍّ عام 1600م يقضي بتكوين شركة تِجاريَّة إنجليزية في بلاد الهند، وهذا

[1] علي رضا النحوي: ملحمة الإسلام في الهند، ص73

المرسوم الملكي كان وراءه دافعان: الأول سياسي، وهو العمل على كسر شوكة إسبانيا، وثانيها تِجاري، وهو حرمان الأسبان من احتكار التجارة الهندية عظيمة الأرباح.[2]

اعتمدت إنجلترا على سياسة التودُّد والحيلة، والتقرُّب بالهدايا للأمراء والملوك المغول في الهند، وكانت سياسةُ "جلال الدين أكبر" - المفرِطةُ في التسامح، والانخراط مع الهنادكة في توليتهم المناصب العليا، وحتى المصاهرة معهم لأغراض سياسية - سببًا من الأسباب الرئيسيَّة في تَجَرُّؤ الإنجليز في التقدُّم لمَلِكِ المغول بموافقته على عمل الشركة الإنجليزية في الهند. فبدأت الشركة ضعيفة في أوَّل أمرها، وقد كان حكامُ الهند متضايقين من نفوذ البرتغاليين المتزايد، وسلوكهم الخشن في معاملة الأمراء، فتَقَبَّل ملوك الهند الإنجليز بقَبُولٍ حَسَنٍ، فلَمْ يُعْطِهم الحكام أية عناية من الناحية السياسية، حيث كانت مراكزهم التِّجاريَّة في أوَّل أمرها مجموعةً من قِطَعِ الأراضي الصغيرة، يُقَام فيها بعض الأكشاك للموظَّفين الذين يعملون فيها، وكان يقوم بحراسة هذه الأراضي حُرَّاس هنود، ثم تدرَّجوا فجعلوا الحراس من أبناء جنسهم، وأخذوا يُسَلِّحونهم بحُجَّة الحراسة، ومِن هنا نَبَتَ الجيش الإنجليزيُّ، المُكَوَّن من أبناء جنسهم، وممَّن انخرطوا معهم من الخونة.[3]

[2] عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند، ص: 342

[3] المرجع السابق: ص: 343

وفي عام 1686م أقدمت شركة الهند الشرقية الإنجليزية على بِنَاء أكبر مستعْمَرَة ومركز تِجاريٍّ في مدينة عُرِفَت فيما بعدُ بمدينة كلكتا بالبنغال، وذلك بعد طلبهم الصلح من أورانك زيب، بعد هزيمته لهم، والتي انطلقت منها الجيوش الإنجليزية لاحتلال شبه القارة الهندية، وقد بدأ مخطَّطهم برغبتهم في القضاء على ما تبقى من نفوذ الدولة المغولية، والتي تمثِّل رمز السيادة الإسلامية في شبه القارة الهندية، ومن أجل ذلك خاضوا غِمَار معاركَ طاحنةٍ ضدَّ "سراج الدين"، الحاكم القويُّ لإقليم البنغال، واستطاعوا غدرًا الاستيلاء على هذا الإقليم عام 1169هـ، ثم عيَّنوا جعفر علي خان - أحد الموالين لهم - حاكمًا اسميًّا على البنغال، ولم يقف الملك "جلال الدين محمد شاه عالم الثاني" - سلطان دِلْهَى - مكفوف الأيدي، وقد اتَّخذ من "إله آباد" مقرًّا لحكومته، فقد واجه المستعْمِرَ في معركتين؛ عُرِفَتِ الأولى بحرب بلاسي عام1757م، والثانية بحرب بكسر عام1764م، غير أنه مُنِيَ في المعركتين بهزيمتين حاسمتين، ترتَّب عليهما استسلامه، وإجباره على عقد اتِّفاقية مع المستَعْمِر عُرِفَت باسم اتفاقية "إله آباد"، اعْتَرَف فيها بحكم شركة الهند الشرقية الإنجليزية على البنغال وأوريسة وبهار، كما أَجْبَرُوا ملك "أوده" بدفع ضريبة سنويَّة قدرها خمسة ملايين روبية، وتعيين قادة من الإنجليز في مملكته.[4]

مقاومة الاحتلال الإنجليزي: واستمر مسلمو الهند في مقاومة المدِّ الإنجليزي فوقف السلطان حيدر علي "حاكم ميسور" بكُلِّ بسالة في وجه الغزو الاستبدادي الإنجليزي،

[4] حاتم محفوظ: ازدهار الإسلام في شبه القارة الهندية، ص:111

وكان الإنجليز يَعْرِفُون مكانته الحربية والعسكرية، فلم يكونوا ليَجْرُءُوا على التقدُّم والنيل منه وحدهم، فتحالفوا مع المرهتا ، واجتمعت جيوشهم في مدينة مَدارس تحت قيادة القائد الإنجليزي أيركوت، ومنها انطلقوا للهجوم على ميسور، إلا أن السلطان حيدر علي استطاع هزيمتهم مجتمعين، ثم طلبوا منه الهدنة فَقَبِلَ، كما عاهد حيدر علي الفرنسيين، واتَّفق معهم على اتِّفاقية دفاع مشتَرَك.

فأمَدُّوه بالسلاح والضبَّاط المدرَّبين لجنده، فهاجم حيدر علي مدينة مَدارس، وأوقع بالإنجليز هزيمة ساحقة، واستنجد الإنجليز بقوَّات أيركوت، فدارت رَحَى حربٍ برِّيَّة وبَحْرِيَّة بين الجانبي عام 1781م، واشترك في هذه الحرب الأمير "فتح علي خان" الشهير بتيبو، وقد أحرزت قوَّات حيدر علي عدَّة انتصارات على قوَّات الإنجليز، إلا أن المَنِيَّة لَحِقَت بحيدر علِيٍّ عام 1782م، فاضطرَّ "تيبو" للرجوع لمدينة سرنجابتم العاصمة.[5]

وأعاد السلطان "تيبو" تنظيم جيشه، وبناء أسطوله بمعاونة من الْفَرنسيِّين، حتى عاد إلى سابق قوَّته، وأصبح قوَّة كبرى تهدِّد الكيان الإنجليزي ومعاونيه، فجمع القائد ولزلي - الذي تولَّى منصب الحاكم العامِّ لشركة الهند الشرقية الإنجليزية - كُلَّ إمكانات الإنجليز وأسلحتهم الحديثة من الولايات التي بحوزتهم، وقاد جيوش الشركة والحلفاء في معركة شرسة عند كورج في عام 1799م فهُزم جيش تيبو، واتَّجهوا

[5]حاتم محفوظ: ازدهار الإسلام في شبه القارة الهندية، ص117-118

نحو سرنجابتم وحاصروا تيبو، إلا أنه دافع عن قلعته دفاع الأبطال، لكن الخيانة هي التي أوقعت به في نهاية الأمر بواسطة رئيس وزراء مملكته ويُدْعَى مير صادق، ففتح لهم القلعة، ودخلت جحافل الإنجليز واستولَوْا عليها، وسقط السلطان المجاهد شهيدًا في عام 1799م، وهو في السادسة والأربعين من عمره.[6]

وأصبح لشركة الهند الشرقية الإنجليزية الكلمة الكبرى بعد مقتل السلطان تيبو، وكانت الطامَّة الكبرى انتقال حكم الهند عام 1854م من شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى التاج البريطاني.[7]

بداية الثورة الهندية: كانت الأحداث في الهند في اطراد مستمرٍّ، والإنجليز في غرورهم وفظاظتهم تِجاه المسلمين وغير المسلمين، فبدأت الحركات لتحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، بحيث حث كل من العلماء و الزعماء الكبار المخلصين أهل الهند ضد الإنجليز و كان منهم أول شخص يطلق عليه شاه ولي الله الدهلوي، الذي شعر بخطر السلطة البرطانية ، و كتب كثيرا عنه في مؤلفاته، و لو لم يقدر على تنفيذ أفكاره في حياته، لكن ترك خلفه أولاده و رفقاءه ، الذين قاموا بتربية الناس على منهج فكره. نتيجة لذلك، جعلت تشتد الحركات الوطنية يوما فيوما، و تحدث الثورات و الإضرابات في مختلف أنحاء البلاد بشكل مستمر، و يساهم الناس بدون أي تفرقة في تحقيق تحرير الهند من الاستعمار البريطاني، بحيث نشاهد

[6] حاتم محفوظ: ازدهار الإسلام في شبه القارة الهندية، ص: 119

[7] إسماعيل أحمد ياغي و محمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج1، ص: 323

الاتحاد المثالي بين المسلمين و الهندوس في الثورة التاريخية الكبرى، التي حدثت عام 1857م في الهند الشمالية و المركزية.

و قد كان السبب الرئيسي في اندلاع الثورة الهندية الكبرى في عام1857م أن الانجليز قد جلبوا خراطيش كانوا يَدْهِنُونَها بشحم البقر والخِنْزِير، وكان يتعيَّن على الجنود قطع هذا الشحم المتجمِّد قبل استعمال هذه الخراطيش، ولتَعَنُّت الإنجليز واستهتارهم بمشاعر الجنود أمروهم بقطع الشحم بأسنانهم، ومن المعلوم أن البقر مُحَرَّم عند الهندوس، وكذلك الخِنْزِير عند المسلمين، فعصَوا الأوامر الصادرة لهم في هذا الشأن استجابة لعقائدهم الدينيَّة، فأمعنوا في إذلال الجنود وأنزلوا بهم أقصى أنواع العقوبة، حيث حكموا على 85 منهم بالسجن عشر سنوات، وتفنَّنوا بإذلالهم وتجريحهم وتعذيبهم أمام زملائهم.

وعلى الرغم من استغاثة زملائهم لهم إلا أنه لم يَسمع لرجائهم في رفع العذاب والألم عن زملائهم أحدٌ، فصارت قلعة ميرت - القلعة التي حدثت بها الواقعة - بركانًا يغلي بالغضب على الإنجليز، ولمَّا كانت المحاكمة في 9 مايو عام 1857م بهذا السوء والفحش في المعاملة، لم يأتِ اليوم الثاني إلا والجنود واثبون على قادتهم من الضباط يقتلونهم، ويدمِّرون حصونهم، ومنها بَدَءُوا زحفهم إلى العاصمة دِهْلَى، وبدءوا في تقتيل الإنجليز وكل ما يتعلق بهم.

لكنَّ الثورة فشلت؛ لعدم وجود القيادة الراشدة التي تأخذ بزمامها نحو استقلال البلاد؛ فقد كان السلطان بهادرشاه الثاني آخر سلاطين المغول رجلاً مسنًّا غير قادر على أعباء هذه الثورة، فعندما ظهرت بوادر الفشل ترك المُلْكَ - وأولاده وأهله في قلعتهم - والتجأ إلى مقبرة همايون خارج البلد، بعيدًا عن مركز الخطر، فكان لهذه الخطوة أثرها السيِّئ في نفوس الثوَّار، حيث بعث في قلوبهم الرعب والذعر، فلم يلبث الإنجليز أن سيطروا على الموقف في دِهْلَى، بعد أن استمرَّت الثورة أربعة أشهر، فتمَّ القضاء عليها نهائيًّا في سبتمبر من عام 1857م.[8]

وبعد هذه الفاجعة الكبيرة التي أَلَمَّت بالمسلمين في الهند، ابتلعت الثورة أرضا واسعة من الهند، و أدخلت فيها جمهور الشعب. قاتل ملايين الفلاحين و الفنانين و الجيوش بصورة بطولية مثالية أكثر من سنة، و سجلوا بابا ذهبيا من الشجاعة النادرة في تاريخ الشعب الهندي. و حدث أمر مهم بعد هذه الثورة، هو انتقال السلطة من شركة الهند الشرقية إلى التاج البريطاني.[9]

حزب المؤتمر القومي الهندي: أنشأ بعض الهنود المتأثرين بالفكر الغربي عام 1885م حزب المؤتمر القومي الهندي. وقد اقتصر نشاطه منذ أيامه الأولى على مناقشة القضايا السياسية. وطلب من الحكومة معالجة الشكاوى، إلا أنه لم يكن له قاعدة دستورية.

[8] عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص426، 428، 429، 433

[9] المرجع السابق

وفي تسعينيات القرن التاسع عشر أصبح الإيقاع السياسي أكثر سرعة، وذلك بفضل المفكر السياسي بال غانجادار تيلاك الذي أيد العنف لإسقاط الحكومة البريطانية في الهند. ورد البريطانيون على تلك الهجمات بعمل عسكري وأمني حازم. وأُلقي القبض على الثوار، فأُعدم البعض، وسجن البعض الآخر في جزر أندمان في المحيط الهندي. وعلى أية حال، أدت المطالبة الهندية بالمشاركة الفاعلة في الحكم وإجراء تغييرات دستورية لاقتناع السياسيين البريطانيين بضرورة التغيير.

و في مثل هذه الظروف نشأ غاندي و جناح، و عملا عملهما الحاسم لاستقلال الهند من براثن الاستعمار على اختلاف طرقهما في معارضة السياسة البريطانية و تباين فكرهما، حتى نجحا في جهدهما، و كان نجاحهما في غاياتهما غاية ما يستطاع.

الوضع السياسي في مصر[10]

كانت مصر في عهد غاندي و جناح تعاني من نفس الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في الهند. و كانت للأحداث تقع في إحداها تأثيرا في أخراها.

بدأت اهتمامات بريطانيا بمصر تتعاظم بعد إفتتاح قناة السويس للملاحة؛ حيث مهدت الطريق إلى الهند. وقد استمر الإحتلال البريطانى لمصر حتى عام 1954.

[10] سليمان بن صالح الخراشي: كيف احتل الإنجليز مصر، موقع صيد الفوائد على الإنترنت

و في هذه الفترة قد قامت كثير من الحركات الوطنية ضد الإنجليز، بدأت على يد مصطفى كامل الذى دعا الى إنهاء الاحتلال البريطانى، و انتهت بثورة يوليو 1952م.

كان الخديوى توفيق فى الحكم كحاكم رسمى للبلاد بعد الاحتلال البريطاني، إلا أن إنجلترا كانت الحاكم الحقيقى للبلاد من خلال المندوب السامى البريطانى.

وكان أول هؤلاء المعتمدين هو اللورد كرومر الذي تولى الأمر عام 1883م. قام كرومر بتسريح الجيش الذي ساند أحمد عرابي، قائد الثورة ضد الخديو توفيق، وتكوين جيش جديد وعلى أسس جديدة. وكوَّن مجالس استشارية وأدخل تحسينات على القضاء بإدخال نظام المحاكم الأهلية وأجرى إصلاحات اقتصادية حولت العجز في الميزانية إلى فائض. أثناء ذلك أرسلت بريطانيا حملة بقيادة كتشنر للقضاء على الدولة المهدية. وبالفعل خاضت تلك الحملة عدة معارك انتهت بالقضاء على دولة المهدية عام 1899م.

خلف توفيق على خديوية مصر ابنه عباس الثاني عام 1892م ودخل الأخير في صدام مع كرومر امتد إلى إقامة وتشكيل الوزارات. في هذه الأثناء كان الشعور الوطني ينمو باضطراد فبرز الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل واستغل حادثة دنشواي لإلهاب الشعور الوطني. وفي عام 1911م أصبح كتشنر معتمدًا بدلاً من جروست الذي خلف كرومر. ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى التي كانت فيها تركيا

على طرف نقيض مع بريطانيا. إزاء ذلك وضعت مصر تحت الحماية البريطانية وانتهى الدور العثماني فيها وعزل الخديوي وتحولت إدارة مصر بكاملها إلى مندوب سام بريطاني هو مكماهون.

ثم تفجرت ثورة 1919م بقيادة سعد زغلول زعيم الحركة الوطنية المصرية. جائت هذه الثورة في ظل المعاملة القاسية التي كانت بحق المصريين من قبل البريطانيين، والأحكام العرفية التي أصدرت بحق المصريين. قد لاقت الجماهير الفقيرة ظلم واستغلال خلال أربع سنوات هي عمر الحرب العالمية الأولي، ففي الريف كانت تصادَر ممتلكات الفلاحين من ماشية ومحصول لأجل المساهمة في تكاليف الحرب، كما حرصت السلطات العسكرية على إجبار الفلاحين على زراعة المحاصيل التي تتناسب مع متطلبات الحرب، وبيعها بأسعار قليلة. و هذه الثورة منحت مصر استقلالاً مقيدًا من بريطانيا، نُصب بعده فؤاد الأول ملكًا على مصر. ودخلت الحركة الوطنية في نزاع مع بريطانيا تكررت خلاله استقالات الحكومات المتعاقبة. وفي 1936م توفي الملك فؤاد ليخلفه ابنه فاروق الذي أطاحت به حركة الضباط الأحرار عام 1952م.

كان الجيش المصري أحد الجيوش العربية التي خرجت خاسرة في حرب عام 1948م. وكانت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية قد شهدت تكوين وإقالة عدد من الوزارات في مصر. وتفاقمت الخلافات بين الأحزاب السياسية فيما بينها من

ناحية وساءت علاقتها بالقصر من ناحية أخرى. وعمت المدن المصرية الكبرى مظاهرات وانتفاضات شعبية. وكانت البلاد على حافة انهيار سياسي واقتصادي.

وسط هذا المناخ استولت مجموعة من الضباط على مقاليد الأمور في مصر في 23 يوليو 1952م. وكان على رأس السلطة يومها الملك فاروق الأول. ألغى العسكريون النظام الملكي وطالبوا الملك بالتنحي في 26 يوليو من نفس العام. وبدأ النظام الجديد الذي تولى اللواء محمد نجيب رئاسته مجموعة من الإصلاحات كان أولها قانون الإصلاح الزراعي الذي صدر عام 1952م، والذي ضاعف من عدد الأفراد مالكي الأراضي وقضى على سلطة الملاك الإقطاعيين. ثم صدرت قوانين الاستثمار التي تشجع على استثمار رؤوس الأموال الأجنبية في مصر. وفي عام 1954م أقيل محمد نجيب وتولى جمال عبد الناصر سلطاته بالإنابة حتى انتخب رئيسًا للجمهورية 1956م.

العلاقة بين الهند و مصر في القرن العشرين

إن الهند ومصر من أقدم حضارات العالم. و يتمتع كل منهما بوجود علاقة وثيقة للغاية فيما و هذه العلاقة لها جذور ثابتة تمتد عبر آلاف السنين في أيام الفراعنة.[11] و قد اشتدت هذه العلاقة في القرن العشرين بسبب الاستعمار و الحركة الوطنية في الدولتين في عهد غاندي و جناح، و قد وصلت ذروتها في عهد جمال عبد الناصر و جواهر لا نهرو، ووقعت الدولتان على معاهدة الصداقة في عام 1955م. وكانت ولادة حركة عدم الانحياز، في جملة أمور، نتيجة لهذه العلاقة.[12]

اقتربت الهند و مصر في أيام الاستعمار البريطاني أكثر من ذي قبل، بسبب السياسة البريطانية و بفضل الحركة الوطنية في كلتا البلدين. فنلاحظ، علي سبيل المثال، أن معظم المفوضين البريطانين في القاهرة كانوا المنتجات من المدرسة الاستعمارية البريطانية في الهند. و كان بارزا بينهم السير إيفلين بارينغ، و لحقه فيما بعد اللورد كرومر الذي حكم مصر بقبضة من حديد لما يقرب من ربع قرن (1883-1907م).

[11] الموقع الرسمي لسفارة الهند في مصر: The Indus & the Nile - Cradle of great Civilizations ، 2009

[12] الموقع الرسمي لسفارة الهند في مصر: India-Egypt relations، يوليو 2011

و نفس الشيء ينطبق على معظم المسؤولين البريطانيين الذين احتلوا مناصب رفيعة في الجيش المصري والوزارات الحساسة مثل وزارتي الري والمالية.

ومن المهم أيضا أنه، في بداية العشرينات من القرن العشرين، كانت التوترات القومية منتشرة في الهند إلى حد أن البريطانيين اختاروا "سيشل" لنفي سعد زغلول في المرة الثانية. و كانت سيلان، حيث أمضى الزعيم الوطني منفاه الأول، قريبة من الهند، مما دفع الحاكم العام ليحذر بريطانيا أنه إذا يرسل زغلول هناك سوف يصبح رمزا للثوار الهنود.

مع نفس الأوضاع والطموحات ذاتها لأجل الاستقلال كان من الطبيعي للمصريين أن تنظر برغبة إلى التطورات القومية في الهند، التي أخذت منعطفا فريدا من نوعه في أوائل الثلاثينات. و لكن كان لديهم أسباب أخرى كثيرة. كانت الهند أيضا، مثل مصر، تعاني من كساد عالمي، لكن القوميين هناك استغلوه بطريقة غير مألوفة. في الهند، كان "مهارا جا" (الملوك) نظراء للسلاطين والملوك في قصر عابدين، الذي، في عهد صدقي على وجه الخصوص، نجح في تأمين القوى الاستبدادية بفضل الدعم البريطاني. و لكن الهنود تعاملوها بشكل مختلف، من خلال العصيان المدني. و أخيرا، كان هناك عبقري لفت انتباه العالم كله. و كان للمهاتما غاندي وقع خاص بين المصريين كذلك. و لذلك حينما زار غاندي مصر في عام 1931م فرحبه المصريون ببهجة و اغتباط.

وصلت الأخبار إلى مصر أن غاندي قد غادر بومباي في 30 أغسطس للندن من أجل استئناف المفاوضات مع السلطات البريطانية في مكتب الهند. و أن باخرته تمر بمصر عبر قناة السويس.

و انتهازا لهذه المناسبة لتأكيد العلاقة بين الحركتين القومية، نظم حزب الوفد وفدا لاستقبال غاندي لدى وصوله إلى السويس. كما تلقى الزعيم الهندي برقيات الترحيب به إلى مصر من زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس، و صفية زغلول، زوجة الزعيم الراحل القومي المصري سعد زغلول.

في مساء يوم الأحد 6 سبتمبر، وصلت سفينة المهاتما غاندي بور سعيد. و كانت جريدة الأهرام أهم مراسليها إلى بورسعيد. فاستغرق اللقاء التي جرت بين محمود أبو الفتح و زعيم القومي الهندي الصفحة الأولى بأكملها من طبعة الأهرام من 7 سبتمبر وحملت عناوين: "ساعة مع غاندي على متن السفينة"، "رسالة غاندي إلى القوميين المصريين"، "غاندي يحذر أن حملة العصيان المدني سوف تستأنف إذا فشل المؤتمر"

و لم تكن الأهرام الصحيفة الوحيدة للاستيلاء على هذه المناسبة، على متن سفينة غاندي كان كبار الصحفيين مع أبو الفتح ممثلين الصحافة المصرية. و كان فيهم عباس محمود العقاد يكتب لـ "مصر"، فوصف غاندي بأنه "قديس الإنسانية".[13]

و هذا يكفي في بيان العلاقة بين الهند و مصر في إطار الحركة الوطنية و تأثير احداهما على الأخرى.

[13] يونان لبيب رزق: Al-Ahram: A Diwanof contemporary life، جريدة الأهرام الأسبوعية، عدد، 716، ديسيمبر 2002م

الفصل الثالث: دراسات و مؤلفات حول غاندي و جناح في مصر

إن غاندي و جناح من نوابغ القرن العشرين في شبه القارة الهندية، كانت لكل منهما رسالة و فلسفة و فكرا خاصا، فكتبت عنهما كتب و مؤلفات و أجريت البحوث و الدراسات عن فلسفتهما و أفكارهما التي أنقذت الهند من براثن الاستعمار و غيرت منهج الفكر و أساليب المقاومة على مستوى العالم.

و لم تكن مصر مختلفة عن سائر البلاد في التأثر بحركتهما في مقاومة الاستعمار و فلسفتهما السياسية و الإنسانية، بل كانت لمصر أسباب أخرى قوية لاهتمامها بحركتهما و سياستهما، و هي أن مصر كانت تعاني نفس الأوضاع التي كانت سائدة في الهند، احتلها الإنجليز في 1882م كما احتل الهند، و حدثت هناك الثورات و قامت الحركات لاستقلال كما حدث في الهند، و لذلك كتب المصريون أيضا عن شخصيتهما العظيمة و أفكارهما السياسية و طرق معالجتهما الأوضاع السياسية و أساليب مقاومتهما الاستعمار البريطاني. و نذكر فيما يلي بعض الكتاب العرب و خاصة المصريين منهم و كتاباتهم عن غاندي و جناح:

عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، و القائد الأعظم محمد علي جناح

عصام عبد الفتاح: المهاتما غاندي: محرر المقهوري

محى الدين رضا: ابطال الوطنية ـ مصطفى كامل، محمد فريد، سعد زغلول، مصطفى كامل، مهاتما غاندي

محمد كاظم: الشمس الحزينة (وهذا كتاب لطيف في حياة غاندي، وهو أول كتاب عربي ألف في حياة المهاتما بعد مماته)

هبة جمال و جمال قطب: المهاتما غاندي

محمد كامل حسن المحامى: المهاتما غاندي

غسان سلق: المهاتما غاندي

محمد سامي عاشور (مترجم): قصة تجاربي مع الحقيقة ـ سيرة ذاتية لغاندي

فتحي رضوان: المهاتما غاندي حياته وجهاده

محمد كاظم الطريحى: حياة غاندي

زراع الحب: مهاتما غاندي

منير البعلبكى (مترجم): عند قدمى غاندي لـ راجيندرا براساد

زكية حسن: غاندي

سيف الدين الخطيب: غاندي

على شعيب: غاندي

فتحى رضوان: غاندي، أحمد عرابى، مصطفى كامل، محمد فريد

فتحي رضوان و آخرون: عظماء الشرق

قدرى قلعجى: غاندي ابو الهند

صوفى عبدالله: غاندي ـ موهاندس كرمشاند

سلامه موسى: غاندي والحركة الهندية

سهيل زكار (مترجم): محمد علي جناح مؤسس الباكستان لـ ولبرت ستانلى

حسين الهمدنى: القائد الاعظم محمد على جناح

شفيق نقاش: محمد على جناح القائد الأعظم

مختار السويفي (مترجم): رجال عظام و نساء عظيمات لـ ليزلي ليفت

و هناك عديد من الكتاب المصريين الذين تناولوا فلسفة غاندي و سياسة جناح و ألفوا كتبا في ترجمتهما و سيرتهما. ولا يزال الباحثون والدارسون يحاولون لإدراك فلسفة غاندي و فهم رسالته للإنسانية.

الباب الثاني

غاندي كما فهمه العقاد في كتابه "روح عظيم المهاتما غاندي"

و فيه أربعة فصول

الفصل الأول: عباس محمود العقاد و كتابه "روح عظيم"

حياة العقاد و آثاره

أديب عملاق يبدو كأنه البحر العظيم، من أي النواحي أتيته راعتك عظمته و أدهشك اتساع ذهنه، و أذهلك جبروته. ذلكم هو الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد (28 يونيو 1889م - 12 مارس 1964م).

ولد عباس محمود العقاد في بلدة نائية من بلدان الصعيد في الإقليم المصري، و هي أقصى مايمكن أن ينقل إليها موظف في الدولة في إبان العصر الحديث. و هي بلدة "أسوان" و لكن عباس محمود العقاد وجد في بلدته مسلاه و ملهاه في سني الطفولة، و رغم أنها تقع في أقصى الإقليم الجنوبي فإن الله قد حباها بطبيعة ساحرة، وهدوء شامل، و جو دفيء في الشتاء، و آثار تالدة تحكي عظمة الفراعنة، و لذلك أحبها العقاد طفلا كما أحبها شابا و كهلا و صارت ملاذه كلما التمس الهدوء أو رغب في الراحة، أو أحب الابتعاد عن صخب القاهرة و ضوضائها.[14]

[14] دكتور جمال الدين الرمادي: من أعلام الأدب المعاصر، ص: 15

و تلقى العقاد تعليمه الابتدائي بمدرسة أسوان الأميرية، ثم حصل على الشهادة الابتدائية عام 1903م و كان له من العمر أربعة عشر عاما.

و كان أبوه يصحبه أيام دراسته الأولى إلى مجلس الأستاذ الأديب الشيخ أحمد الجداوي، أحد فضلاء الأزهريين الذين لزموا السيد جمال الدين الأفغاني أثناء إقامته بمصر، فكان يسمع مطارحاته الشعرية، و قراءاته لمقامات الحريري، و بعض القصائد المختارة، و يستطرف ملحه و فكاهاته و نوادره التي يرويها عن المتقدمين و المتأخرين، فشوقه ذلك إلى مطالعة الكتب الأدبية و ذخائر الكتب القديمة.[15]

وكان أول ما وقع من كتب في يد العقاد كتاب "المستطرف في كل فن مستظرف" للأبشيهي، و ديوان البهاء زهير، و قصص ألف ليلة و ليلة، ثم مجلد عن دائرة معارف البستاني، ثم أعداد مختلفة من صحيفة "الأستاذ" لصاحبها السيد عبد الله النديم، و كان يسمع اسمه كثيرا في مجلس الأستاذ الجداوي، فأخذ ببراعته الأدبية و أسلوبه الساحر الساخر، و من ثم أقبل العقاد بنشاط على المطالعة العربية والأفرنجية، و كان الله قد حباه بموهبة صافية، و قريحة نافذة، و عبقرية خالدة منذ صباه، فاقبل على نظم الشعر و استيعاب الكتب بكل شغف و نهم، و دون كلال أو ملال.[16]

[15] دكتور جمال الدين الرمادي: من أعلام الأدب المعاصر، ص: 15-16

[16] المرجع السابق، ص: 16

و اشتغل عباس محمود العقاد بالصحافة بعد تركه عدة وظائف حكومية كان يستقيل منها واحدة بعد الأخرى، نفوراً من قيودها الثقيلة، و تكاليفها الغثة، أو رغبة في الدعة و العلاج لما ينتابه أحيانا من الضعف و القيام.[17]

و كان أول عمل صحفي للعقاد في جريدة الدستور التي أنشأها الأستاذ وجدي، ثم كتب في صحف أخرى هي المؤيد، و الأهالي و الأهرام. هذا إذا غضضنا النظر عن هذه المحاولة الأولى التي قام بها العقاد في إصدار مجلة مخطوطة و هو طالب صغير في أسوان.

و تفصيل ذلك أن العقاد كان يطلع على مجموعات كبيرة من الصحف و المجلات القديمة الموجودة في "المنظرة" و من بين هذه المجلات مجلة "التنكيت و التبكيت" و مجلة "الأستاذ" للسيد عبد الله النديم، و قد أخذ العقاد بعناوين النديم و اعتبره أستاذ العناوين في كل زمان، وكان يقطع الورق قطعا على قدر المجلة و يعمد إلى مكان العنوان فيها فيكتب بخطه متأبقا "التلميذ" معارضا كلمة "الأستاذ". أما المقالة الافتتاحية التي كانت موضوع المعارضة بين العقاد و النديم فكان عنوانها "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" التي افتتح بها الجزء الثاني و العشرين من السنة الأولى، و كتب العقاد مقاله بعنوان " لو كنا مثلكم لما فعلتم فعلكم ".[18]

[17] المرجع السابق، ص: 16-17

[18] المرجع السابق، ص: 17-18

و أخذ العقاد في مقاله هذا يعارض كلام النديم، وكان زملاؤه في المدرسة و أقاربه و المندرون المتفكهون يعجبون أشد الإعجاب بمجلة "التلميذ" التي لم يكن لها من اشتراك غير النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن.

بيد أن العقاد كان يختلف اختلافا عظيما عن النديم، فالنديم كان يميل إلى الدعابة و التهريج، أما العقاد فقد نشأ في بيت فقير بين أبوين محافظين أشد المحافظة على سمت الوقار و اللياقة، فنقل هذا الخلق منهما بالوراثة كما نقله بالقدوة و المحاكاة. زد على ذلك أن العقاد كان يعتقد أن اللغة العامية ، و كان النديم يستخدمها في كثير من كتاباته، شيئا وقتيا، أما اللغة الفصحى فللفكر و المعاني الباقية.[19]

وعندما فرغ العقاد من تحرير "الدستور" باحتجابه اقترح عليه الأستاذ محمد فريد وجدي صاحب دائرة معارف وجدي، و صاحب مجلة الحياة أن يكتب فيها بعض مقامات و مقالات، فكتب و أخذ قلم العقاد الساحر الساخر يفري جلود خصومه، و أصبحت الصحافة ميدانا لصولات قلمة و جولاته، و في ذلك يقول في مذكراته "إنني أعمل في تحرير الصحف منذ خمسين عاما، وكنت أكتب لها متطوعا قبل ذلك بسنوات قليلة، و أزيد القارئ فأقول أنني عندما بلغت الطفولة فهمت شيئا يسمى

[19] المرجع السابق، ص: 18

"المستقبل" لم أعرف لي أملا في الحياة غير صناعة القلم، و لم يكن أمامي صوت لصناعة القلم في أول الأمر غير صناعة الصحافة.[20]

و في أثناء عمل العقاد بالصحافة كان يزاول التدريس تارة بالقاهرة و تارة بأسوان، و الطريف أنه كان يقوم بالتدريس في بعض فترات حياته نظير تفصيل إحدى البدل، و يقول أن اشترى بدلتين قديمتين، و لكن الجوار الصالح هداه إلى حل مشكلة الملابس، بإعطاء دروس خصوصي لتاجر يبيع القماش، و يتولى تفصيله و تسليمه كسوة ثلاثة أشهر. و لم تزد مدة التعليم عن كسوتين لنشاط التلميذ أو براعة الأستاذ او لرغبة الفريقين في فسخ العقد بسلام.[21]

و كان العقاد منذ أظافره يميل إلى الإطلاع و القراءة، و كان ينفق الساعات الطوال في البحث و التنقيب العلمي، و كان ثمن ديوان البهاء زهير و هو أول ما استرعى انتباهه من دواوين الشعر يباع بقرش واحد، و بهذا الثمن اشتراه العقاد، كما اشترى ديوان المتنبي بعشرة قروش، و المستطرف في كل فن مستظرف بعشرين قرشا، و رجع إلى الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، و الأمالي للقالي، و الكامل للمبرد، و زهر الآداب للحصري القيرواني، و العقد الفريد لابن عبد ربه، و التاريخ للطبري، و غير ذلك من الكتب، و قرأها مرة و مرة كما استوعب دواوين الشعراء القدماء الجاهليين

[20] المرجع السابق، ص: 18-19

[21] المرجع السابق، ص: 19-20

و الإسلاميين. أما في الأدب الأوربي فكان يدمن قراءة كارليل و ماكولي و هازلت و لي هنت و آرنولد و غيرهم من أئمة المقالات في القرن التاسع عشر.

و كان العقاد يترجم ما يصلح للنشر من هذه المقالات في الصحف العربية و على غرارها كان يكتب ما يكتب عن أدباء العرب و الفرس، و وسائل النقد و التعليق.[22]

أما في الشعر فقد أمعن العقاد في قراءة شعر لورد بيرون و بيرسي شللي و كيتس و كولريدج و غيرهم من أعلام المذهب الرومانتيكي في الشعر الإنجليزي.

و كان أشد ما يعجب به هؤلاء الشعراء الذين جمع لهم " بالجريف " أشعارهم في الكنز الذهبي، و عنهم أخذ العقاد و زميلاه المازني و عبد الرحمن شكري فنون الشعر الغربي و طعموا به الشعر، الشعر الغربي الحديث.[23]

و يقول العقاد عن ثقافة العربية "كنت أقرأ كل ما يقع في يدي من الكتب الأدبية و الدينية، و معظمها من الطبقات القديمة. و قرأت في مناقب الصالحين عن الأولياء الذين يمشون فوق الماء و الأولياء الذين يسخرون الريح و لا يحترقون بالنار، فأردت أن أكون مثلهم، و ترددت على المسجد في أوقات الصلوة، و كان مؤذن المسجد القريب من بيتنا رجلا جميل الصوت أسمعه في الفجر أحيانا و أسمع القصائد التي كان ينشدها، و كان شعر البرعي لا يعجبني، فلماذا لا أنشد مع المؤذن قصيدة

[22] المرجع السابق، ص: 20

[23] المرجع السابق، ص: 20

من نظمي ... ". ثم يضيف إلى ذلك قوله " لا تزال صناعة القلم عندي شيء من صناعة السيف، و لا يزال بحث الدين، و ما وراء الطبيعة عندي شاغلا لا يعوقني عنه شاغل من شؤون السياسة أو شؤون المعيشة ".[24]

و يقول العقاد عن ثقافته الغربية وعن جيله من الأدباء كالمازني و عبد الرحمن شكري " و الجيل الناشىء بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها و بين ما سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الإنجليزية، و لم تقصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسي، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر، و هي على إيغالها في قراءة الأدباء و الشعراء، الإنجليز لم تنس الألمان و الطليان و الروس و الأسبان و اليونان و اللاتين الأقدمين، و لعلها استفادت من النقد الإنجليزي فوق فائدتها من الشعر و فنون الكتابة الأخرى، و لا أخطىء إذا قلت أن هازلت هو إمام هذه المدرسة كلها في النقد، لإنه هو الذي هداها إلى معاني الشعر و الفنون و أغراض الكتابة، و واضع المقارنة و الاستشهاد، و هذه المدرسة المصرية ليست مقلدة للأدب الإنجليزي، و لكنها مستفيدة منه مهتدية على ضيائه.[25]

[24] المرجع السابق، ص: 20-21

[25] المرجع السابق، ص: 21

و هكذا قامت القراءة بدور كبير في حياة العقاد و ثقافته، و اتجاهاته في الأدب و المقالة و الشعر، فهو لا يحب الكتب لأنه زاهد في الحياة، و لكنه يحب الكتب لأن حياة واحدة لاتكفيه و مهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد، و مهما ينتقل في البلاد فإنه لن تستطيع أن يحل في مكانين، و لكنه يزيد الفكر و الشعور، والخيال يستطيع أن يجمع الحيوانات في عمر واحد، و يستطيع أن يضاعف فكره و شعوره و خياله، كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل و تتضاعف الصورة بين مرآتين.

و بلغ من شغف العقاد بالقراءة أنه يقرأ كتبا كثيرة لا يقصد الكتابة في موضوعاتها على الإطلاق، حتى أن أديبا زاره فوجده على مكتبه بعض المجلدات في غرائز الحشرات فقال مستغربا و مالك أنت و للحشرات؟ إنك تكتب في الأدب و ما إليه؟ و لشد ما ذهل صاحبه عندما علم منه أنه يقرأ ذلك لثقافته العامة حتى ينفذ إلى بواطن الطبائع و أصولها الأولى و يقيس عليها دنيا الناس و السياسة.[26]

و قد ألف العقاد عشرات الكتب في شتى الموضوعات فكتب في الدراسات الإسلامية سلسلة عن عباقرة الإسلام، استهلها بعبقرية محمد، فعبقرية الصديق، فعبقرية عمر، فعبقرية خالد، كما كتب عن الصديقة بنت الصديق، و عمرو بن العاص و داعي السماء بلال، و أبي الشهداء الحسن بن علي، و الإمام علي بن أبي طالب، كما درس

[26] المرجع السابق، ص: 22

الفلسفة القرآنية في كتاب بين فيه حقائق الإسلام و فند أباطيل خصومه. و تعرض للحكم المطلق في القرن العشرين، و أثر الحضارة العربية في أوربا و الإسلام في القرن العشرين، و حاضره و مستقبله و خصص كتابا عن الله سبحانه و تعالى.[27]

و كتب في الأدب كتاب "الديوان" بالاشتراك مع إبراهيم عبد القادر المازني و هاجما فيه المنفلوطي و شوقي، و انتقدا كثيرا من أدب المنفلوطي و شعر شوقي و سخفا جملة من آثارهما الأدبية، و كتب رجعة أبي العلاء، و ابن الرومي، و شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة و جميل بثينة، و أبا نواس " الحسن ابن هانىء " و كتب مراجعات في الأدب، و ساعات بين الكتب، و مطالعات في الكتب و الحياة، و في بيتي، و يسألونك و تعرض للحياة الأدبية في القرن التاسع في كتاب أطلق عليه شعراء مصر و بيئاتهم في القرن الماضي، و غير ذلك من الكتب الأدبية.

و ألف كتابا بعنوان " تذكار جيتي" و آخر عن "فرنسيس بيكون" و آخر عن "فرانكلين" و آخر عن "غاندي" و سماه "روح عظيم" و غير ذلك من الكتب و المؤلفات و مئات الأبحاث و المقالات في الصحف و المجلات و قد صدر له أخيراً كتاب بعنوان "التعريف بشكسبير".

[27] المرجع السابق، ص:28

و له في الشعر دواوين كثيرة منها ديوان العقاد، و عابر سبيل، و بعد الأعاصير و له قصائد مختارة من الشرق و الغرب جمعها و ترجمها في كتاب أطلق عليه " عرائس وشياطين".[28]

كتابه روح عظيم

الكتابة عن العبقرية و البطولة أو العباقرة و الأبطال خط واضح مميز في أدب العقاد. و هذا الخط له أهمية خاصة عند الدارسين، فهو عنوان تندرج تحته عناوين كبيرة من حيث الموضوع و الدلالة. فالشخصيات الإنسانية التي كتب عنها العقاد منها ما هو أدخل في فن التراجم و منها ما هو مزيج فني بين الترجمة و الدراسة الأدبية. و هي في الحالين و على أي الصورتين مفتاح من مفاتيح نفسه هو، و شخصيته هو، بل لعلها أهما جميعا و أقربها إلى دخول عالمه..الأدبي و الإنساني.[29]

العقاد يوضح بنفسه، في كتابه عن عثمان بن عفان، طريقته في الترجمة و غايته منها، و هما يكادان يكونان شيئا واحدا هو "التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة و العبقرية أو حالة من أحوال النبل و الأربحية، فإن جاوزنا هذا

[28]المرجع السابق، ص: 28

[29]نعمات أحمد فؤاد: الجمال و الحرية و الشخصية الإنسانية في أدب العقاد، ص:39

المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنساني، و تخرجه من غمار التيه و الظلمة، و تسلك به مسلكا غير مسلك التخبط و الضلال."[30]

و شرط العظمة عند العقاد فيمن ترجم لهم "همة الجبابرة من رجال العمل، و طموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة."[31]

و هو يرى في عظمة العظيم أو عبقرية العبقري صورة من صور العظمة الإنسانية، وهي بهذا وحده تستحق الوقوف عندها و الكتابة عنها فضلا عن دلالتها في تفسير أطوار الأمم و أسرار التاريخ.

بهذا الاعتبار كتب العقاد ما كتب غير ملق بالا إلى غيره من اعتبارات و يفسر هذا كتابته عن غاندي و محمد علي جناح و فإنه لم يكتبها رعاية لدولة الهند أو الباكستان و لا لمرجع من مراجع السياسة. يقول العقاد في مقدمة "القائد الأعظم":

"إنما ألفت الكتاب عن غاندي بحقه الشخصي أو بحق عظمته و مغزى هذه العظمة في تاريخ الإنسان."[32]

فالكتاب "روح عظيم" تأليف عن شخصية غاندي و عظمته، و ليس له علاقة ذاتية بالتاريخ أو السياسة. لأن العقاد معجب بالإنسان الفرد و العبقرية الفردية، فلا يكتب

[30] المرجع السابق، ص: 60

[31] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 7

[32] المرجع السابق، ص: 9

عن عصر من العصور أو شعب من الشعوب أو عن ثورة من الثورات. و لكنه يحتم دراسة العصر الذي نشأ فيه العبقري، لأنه يساعد على فهم عظمته و شخصيته. و هكذا فعل في كتابه عن غاندي، فلا يدخل في تفصيل ثورة الهند و سياستها إلا إلى حد ضروري لفهم عبقريته و فكره و فلسفته. فالكتاب "روح عظيم" ليس بسجل حوادث و لا تقويم أيام، و لكنها مرآة صغيرة يبدو فيها مناط العظمة من مهاتما الهند.

الفصل الثاني: نشأة غاندي و العوامل المؤثرة في شخصيته

نشأة غاندي[33]

كان غاندي (2 أكتوبر 1869م - 30 يناير 1948م) من العظماء من ترتبط ترجمته و ترجمة أسرته كما يرتبط الفصلان في قصة واحدة، فلا تفصل سيرته عن سيرهم إلا عرض لها بعض النقص.

كانت أسرته أصلح أسرة و كانت أمه على الخصوص هي الأم التي لا تستغرب خلقا من أخلاقه، و لا عملا من أعماله، إذا عرفنا سيرتها. و كان جده "أوتا غاندي" رئيسا للوزراء في "بوربندر"، و كان مع اشتغاله بالسياسة رجلا لا ينسى عهده و لا ينقض وده، ألجأته صراحته إلى ترك وظيفته و الهجرة من بلده و اللياذ بأمير إقليم "جوتا جاد". فلما لقي الأمير سلم عليه بيده اليسرى إيذانا من اللحظة الأولى ببقائه على عهد أميره الأول، و قال: إن يدي اليمنى هي اليد التي عاهدت بها أمير بوربندر فلا أعاهد بها مرتين.

[33] عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 20-35

و كان أبوه كرمشاند غاندي—أو كابا غاندي، كما عرف بين أهله—هو الولد الخامس لجده، والولد الأول من زوجته الثانية. و قد كان وزيرا في راجكوت، ثم وزيرا في "فانكانار". و مات هو يتقاضى معاشا من حكومة راجكوت.

و فقد كابا غاندي زوجتين قبل أن يتزوج بأم غاندي "بوتلبائي" ثالثة زوجاته، و رزق منها بنتا و ثلاثة أبناء: أصغرهم هو المهاتما الذي سمي موهانداس.

أما أمه بوتلبائي فكانت تكتفي في اليوم بوجبة واحدة من الطعام، و كانت تصوم في معظم الأيام، و كانتب على غيرتها الدييبنية متصرفة في عقيدتها، فقد قيل إنها تحولت إلى العقيدة الجينية، لأنها وجدتها أقرب إلى النسك و أقرب إلى الكمال.

ولد موهانداس في اليوم الثاني من شهر أكتو بر سنة 1869م في بلدة بوربندر، و نشأ على الطريق المألوف في أسرته إلا أنه تعرض شيئا من المحن كما روى لنا في سيرة حياته و اعترافاته. و قال إنه كان جبانا، و كان يستمع إلى الأحاديث عن اللصوص و الأشباح و الثعابين فيفزع منها و لا يجرؤ على الخروج من بيته في الظلام، و لا ينام في حجرته إلا على نور. وظل كذلك حتى تزوج، فكان يخجله أن يرى زوجته الصغيرة أقدر منه على مواجهة الظلام.

و في صباه كان صبيان الهند يتهمون أنفسهم بالجبن و يحسبون بالنقص كلما عقدوا المقارنة بينهم و بين شبان الإنجليز، و وقر في أنفسهم أنهم يكسبون الشجاعة و قوة

الخلق إذا نبذوا معيشتهم، و أكلوا و شربوا و دخنوا، و قصفوا، و لعبوا كما يفعل الشبان الإنجليز.

و وسوس بهذا إلى غاندي زميل من زملاء المدرسة ، فسرق غاندي دريهمات من خادمه ليصبح بطلا تعتز به الهند ف ي وجه الدولة البريطانية .. و أكل اللحم المحرم هم باستباحة غيره من المحرمات. و جرأته السرقة الأولى على سرقة أخرى ، فعاد إلى السرقة في المرة الأخرى لأنه رآى دائنا على قريبه في طلب دين عليه، فاختلس من يد ذلك القريب قطعة ذهبية ليؤدي عنه دينه الذي يمطل به غريمه.

و عز على غاندي و صاحبه أن يختلس القوة هكذا، و ألا يجسر أحدهما على مكاشفة أهله بما يفعل. فساورهما الأسف و حز في نفسيهما الكبت و الروغان، و فكرا في "الانتحار" و اشتريا السم فعلا و أكل منه و لكن دون المقدار الذي يميت.

هكذا ذكر غاندي في سيرته الذاتية من المحن التي كانت عارضة و التي جعلت غاندي يحس بالجبن في نفسه و لكن العقاد يرى أن اعتقاده الجبن في نفسه خطأ، و هو من المخاطر النفسية، فإنه ليس من المعقول أن يؤدي الإحساس بالجبن إلى إنقلاب في طبيعة الإنسان يجعله من أشجع الناس و أقدرهم على مواجهة الخطوب التي يتقيها أشجع الشجعان.

تزوج غاندي على عادة قومه و هو في الصبا الباكر. فخطبت له الصبية "كستربائ" من عشيرته و هو في الثامنة، و بنى بها و هو في الثالثة عشرة، و لم يبلغ العشرين حتى صار أبا لأربعة أطفال، أكبرهم "هيرا لال" الذي مات بعد مقتله ببضعة أشهر، و كانت وراثته الغاندية قلقا دينيا خامره منذ صباه، فلم تعجبه الجينية و لا البرهمية، و انتحل الإسلام و المسيحية، و اعتزل أهله منذ فارق نحلة الأسرة إلى أ، مات في يونيو 1948م.

أما تعليمه فقد اتبع فيه أهله ما يتبع في تعليم الأطفال من أبناء أمثالهم. و كان أبوه في راجكوت حين بلغ موهانداس سن السابعة أو سن الدراسة الابتدائية، فألحقه بمدرستها، و انتظم في المدرسة الثانوية و هو في الثانية عشرة. و لم يكن غاندي من التلاميذ اللامعين، و لكنه كان يقبل على دروسه و لا يتواني في استذكارها.

و لم يتعلم في المدرسة كثيرا من الدروس الدينية، و لكنه يتلقاها في البيت و المعبد و يعي منها كل ما يلقى إليه.

و مات أبوه و هو في السابعة عشرة من عمره، فكفله أخوه الأكبر. و أرسله للتعليم العالي إلى كلية ساملداس في جامعة بافنجار. و يقول غاندي إنه غرق في علومها فنقل إلى بيته بعد نهاية السنة الأولى، فنصحه برهمي صديق للأسرة بالسفر إلى البلاد الإنجليزية لدرس القانون، و مال هو إلى الطب...فذكره أخوه أن أباهما كان

يمقت تشريح الجثث، و أن وظيفة الطبيب لا ترشحه لولاية الوزارة، فجنح إلى الدراسة القانونية إكراما لذكرى أبيه.

و يقول العقاد أن هنا قامت في وجهه العقبة الكبرى، لأن إيغال فتى مثله فيما وراء البحار مستنكر في شريعة الجينين. و لكن كاهن الأسرة استطاع أن يجد للأمر مخرجا يرضي الأم و فتاها، فقال لهم: إن النذر باجتناب المحرمات في بلاد الغربة كاف إذا وثقت الأسرة من رعاية الفتى لنذره. و كانت الأم تعرف وليدها و تطمئن إلى صدقه في وعده. فأقسم بين أيديهم لا يقاربن امرأة و لا يذوقن خمرا و لا يأكلن لحما أو طعاما محرما. و ارتحل إلى البلاد الإنجليزية.

و يمتحن مهاتما المستقبل في هذه الرحلة بالفتنة الكبرى. فتدرب على الرقص و تعلم العزف على بعض الآلات الموسيقية، و صحب رفاقه إلى السهرات و راض نفسه على أدب المغازلة. ثم أحس أنه يتكلف و لايخف بطبعه إلى استجابة هذه الفتنة. فاتصل بالأندية الصوفية، و اطلع في اللغة الإنجليزية على آداب قومه التي فاته أن يطلع عليها في اللغة السنسكريتية، و عاد من طريق أوربا الحديثة إلى تاريخ وطنه القديم.

و نال إجازة الحقوق بعد ثلاث سنوات، فرجع إلى وطنه و هو أطيب ما يكون قلبا بلقاء أمه و وفاء نذره، و لكنه سمع أول ما سمع بنعي تلك الأم التي ماتت في غيبته، و كتموا نبأ موتها عنه إشفاقا عليه من صدمته.

و زاول غاندي صناعة المحاماة زهاء سنتين في وطنه، فكانت أول تجربة له فيها إخفاقا تاما لأنه حصر عن الكلام، و لم ينجح فيها بعد تكرار التجربة و رضي عن عمله في هذه الصناعة، لأنه أخذ نفسه بالصدق في قبول دعاواه، و أنف من اقتناص أصحاب القضايا بالحيلة و معونة السماسرة. فما هو إلا أن دعي إلى أفريقية الجنوبية حتى بادر إلى قبول الدعوة و وصل إلى بريتوريا في سنة 1893م و هو لا يعلم بما يضمره له الغيب في هذه الرحلة المفاجئة. فقد كانت مفرق الطريق في حياته و في حياة بلاده على الإجمال.

سافر غاندي إلى أفريقية الجنوبية بدعوة من بعض الشركات الإسلامية التي كانت تتجر على شواطئ المحيط الهندي من أقصاه إلى أقصاه، و لم يدع للمحاماة، بل لمساعدة المحامين الكبار من الإنجليز. لأن المحامي الإنجليزي هو الوكيل القضائي الذي يسمع له صوت في محاكم أفريقية الجنوبية.

و هنا يرى العقاد أنه ذهب في الواقع إلى تلك البلاد لأمر آخر مطوي عنه و عن موكليه في عالم الغيب المجهول. ذهب ليتلقى رسالته في حياته.

فتلقى رسالته، و عرف قضيته، و وضع قدمه على فاتحة الطريق التي انتهت به إلى زعامة الهند كلها، بعد جهاد طويل دام نحو عشرين سنة، و وضع هناك (سنة 1908م) دستور الهند في جهادها السياسي و الأخلاقي فكان هو الدستور الذي قاد به الهند إلى استقلالها.

عقيدته

يدعي العقاد أن غاندي لم يكن يؤمن بالبرهمية، بل كان يؤمن بالجينية. و مع أن الزعيم الهندي كان يدعو إلى اللاعنف و يؤمن بالأهمسا، إن القول بإيمانه بالجينية دعوى لا يؤيده أي مرجع نعلمه. و لكن العقاد مصر برأيه، و يقول:

"يسبق إلى الظن أنه ـ حين يذكر غاندي زعيم الهند ـ يدين بالبرهمية، ديانة الهند الكبرى، و أقدم عقائدها المعروفة. و لكن الحقيقة أنه لا يدين بالبرهمية و لا بالبوذية، التي هي أشهر المذاهب في خارج الهند بعد الديانة البرهمية. و إنما يدين بنحلة خاصة من نحل تلك الديانة القديمة، و هي النحلة الجينية."[34]

يعتقد العقاد أن إيمانه بهذه العقيدة قد أثرت في تكوين شخصيته و أسلوب تعامله الحياة و السياسة إلى حد كبير. و إن غاندي قد ورث دواعي الثورة و دواعي الإصلاح الاجتماعي و مصدر آدابه الروحية جميعها مستمدة من عقيدته الجينية. يقول العقاد في تقرير دعواه عن عقيدة غاندي:

"و لا غني في الكلام على عبقرية غاندي عن تقرير هذه الحقيقة الهامة، لأنها توضح لنا تلك العبقرية من جانبين خطيرين: أحدهما أن الجينية ـ مع كونها نحلة دينية ـ هي في الواقع ثورة قومية على سلطان الغزاة الآريين، بل هي أقدم ثورة قومية روحية

[34] عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 70

في الهند على ذلك السلطان...فالمهاتما إذن قد ورث دواعي الثورة على ـ السيادة الغالبة ـ من عقيدة الجينية، و لم يكن في حاجة إلى جهد كبير ليتجه بفكره و طبعه إلى مقاومة الغزاة الجدد في القرن العشرين...و قد ورث كذلك دواعي الإصلاح الاجتماعي من تلك العقيدة القومية الروحية، فلم يكن في حاجة إلى مشقة كبرى للتفكير في إنصاف الضعفاء، و التسوية بين الطبقات.

أما الجانب الآخر الذي توضحه لنا تلك العقيدة من عبقرية غاندي، فهو مصدر آدابه الروحية...و إن الواقع الذي لا مراء فيه أن مبادئ غاندي جميعا مستمدة من العقيدة الجينية، و أنه لم يدع إلى خطة واحدة في الإصلاح الاجتماعي أو السياسي لا ترد بجملتها و تفصيلها إلى تلك العقيدة. و كل ما استحدثه فيها من الخطط العصرية فهو من تصرفه و روحي عبقريته، و نزعة مزاجه و تفكيره، على حسب الحوادث و المناسبات."[35]

إلى هذه الغاية يعتبر العقاد بالعقيدة الجينية مهما في بيان العناصر المؤثرة في كيان غاندي، و لذلك خصص فصلا كاملا من كتابه ببيان تأسيسها و مبادئها و فلسفتها الرئيسية و وصاياها الدينية المذكورة في الكتب الجينية. و إذا يفرغ من بيانها فيؤكد مرة أخرى على إيمان غاندي بالجينية و تأثيرات عقائدها و مبادئها على حياة غاندي و فلسفته و سياسته. يقول العقاد:

[35] عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 70-71

"هذه خلاصة كافية في هذا المقام للعقيدة الجينية ـ عقيدة غاندي ـ و هي أهم شيء في كيان غاندي و سيرته و عمله. لأن العقيدة عنده مقدمة على السياسة و على الوطنية، و هي مرجعه فيما يأخذ و فيما يدع من وجوه الإصلاح و وجهته في دعوة الحرية و مبادئ الأخلاق، و هي باعثة الثورة فيه على القوة الغالبة، و معدن السلاح الذي استعد به لتلك الثورة: سلاح الحب و مقابلة العدوان بالصفح و الغفران."[36]

صلاته

ذكرنا في السطور السابقة أن العقيدة الجينية، في رأي العقاد، عاملة مهمة في تكوين شخصية غاندي، فإن مبادئ حياته جميعها مستمدة من عقيدته. هنا نذكر صلاته التي يراها العقاد عنصرا مهما من عناصر عقيدته، هو يقول:

"عقيدة غاندي هي أهم شيء في بنيان شخصيته. و صلاة غاندي هي أهم شيء في بنيان عقيدته. فنحن لهذا نقترب من فهمه كلما اقتربنا من فهم صلاته، لأن الصلاة عنده لاتنبعث عن طلب أو استغاثة أو ابتهال، و لكنها تنبعث إلى حس فوق الحس، و فوق التفكير، و فوق التفكير و الابتهال. و هي عنده، كما هي عند الجينين عامة، أعلى مراتب الوعي الذي يتاح للكائن الموجود."[37]

[36] المرجع السابق، ص: 83

[37] المرجع السابق، ص: 86

فالروح الإلهي في اعتقادهم سار في جميع هذه الموجودات، مبثوث في جميع الأجسام و الأجساد، و لا يزال الإنسان محصورا في أوهاق الجسد أو في أوهاق المادة على العموم، ما دام معتمدا على الحواس، أو على العواطف أو على التفكير في إدراك ما حوله. و لكنه يرتقي إلى مرتبة من الوعي أعلى من مراتب التفكير، عند ما يدرك الروح خالصا منزها من هذه الأوهاق.

و قد كان غاندي يصلي ليستعيد هذه السعادة، و لا يتنظر شيئا غيرها من الصلاة، و كان يود لو ينقطع للصلاة مدى حياته، و لكنه يعلم أن لقاء الروح الإلهي مدى الحياة أمر يفوق الطاقة الإنسانية، فكان يتزود منها بغاية ما يطيق، و يؤثر هذا الزاد على كل زاد فيه غذاء للجسد، أو غذاء للعقل، أو غذاء للروح.[38]

قال غاندي، كما يذكر العقاد، في محاضرة له عن الصلاة: "إن من يختبر سحر الصلاة قد يستغني عن الطعام أياما، و لا يستغني عن الصلاة لحظة واحدة. إذ لا سلام في داخل الضمير بغير صلاة".[39]

و قال لجمع من الطلاب في تلك المحاضرة: "إن في صدر الإنسان لصراعا أبديا ثائرا بين قوى الظلام و قوى النور، و من لم يكن له مرفأ أمين من الصلاة يلوذ به، فهو خليق أن يقع فريسة لقوى الظلام".[40]

---

[38] المرجع السابق، ص: 88

[39] المرجع السابق، ص: 89

و هذه هي الصلاة كما يصفها غاندي للطلاب، و قد كان يخاطبهم حين يكلمهم عنها باللغة التي يخاطبونها بها، و هي لغة العلوم التجريبية، فكان يقول: "إن نفع الصلاة قد ثبت للمصلين بالتجربة من قديم الزمان، فلا يجوز لهم إنكارها إلا بعد تجربتها، و لن يجربوها حتى يجدوا في التجربة و لا يتخذوها عبثا أو سخرية."[41]

كان يفعل غاندي هكذا لتفهيم الطلاب، و لكن الصلاة عنده، في رأي العقاد، ليست تجربة و لا استطلاعا و لا وسيلة إلى غاية. إنما هي غاية الغايات، لأنها هي التقاؤه بالروح الإلهي في أفق أعلى من أفق الحس و التفكير و المراجعة. و ليس للإنسان غاية أسمى من هذا اللقاء.[42]

مفتاح شخصيته

من عادة العقاد أنه إذا يكتب عن عبقري يذكر مفتاح شخصيته ذلك العبقري، و قد فعل ذلك في كتابه عن غاندي، و لكن بأسلوب مختلف. إنه بدأ ببيان النقائض في حياته و فكره، ثم وجه إلى رفع التناقض و وجه التوفيق بين النقائض، فبين مفتاح شخصيته. يقول العقاد:

---

[40]المرجع السابق

[41]المرجع السابق، ص: 90

[42]المرجع السابق، ص: 91

"سيرة غاندي في معيشته من أبسط السير التي عرفناها لعظيم من عظماء العالم قديمه و حديثه، و لكن هذه السيرة على بساطتها قد اشتملت على جملة من النقائض، قلما عرفت عن حياة عظيم."[43]

إن الرجل عصري بزمنه و تعليمه، تعلم في أحدث الجامعات، و عاش في أحدث البيئات الإنجليزية، و تثقف في بلاده و في أوربة على النمط الحديث، و لكنك تحسبه من عجائز القرون الوسطى إذ سمعت مثلا برأيه في الطب و العلاج.

فكان غاندي يكره الطب الحديث و كان يرى في الأدوية عامة أن ضررها أكبر من نفعها، لأن البنية كفيلة بإصلاح نقصها. و بجانب آخر كان يستعين بالنظارات و الأسنان الصناعية.

و كان غاندي صحفيا يصدر صحيفة دورية و يكتبها و يواظب على إصدارها و كتابتها. و لكنه حذر من الصحافة و أسف لتهافت الناس عليها.

و كان غاندي يؤمن بأن الموكشا أو اعتزال العلاقات الجنسية هو سبيل الخلاص الأعظم و معراج الروح إلى عالم الصفاء و الخلود، و قد أقسم و هو في نحو السابعة و الثلاثين قسم التبتل المعروف بالبرهماشاريا، فاعتزل زوجته منذ ذلك الحين. و لكنه لما عرضت له مشكلة الأيامى الصغيرات جرد نفسه للعناية بتزويجهن و أوصى

[43] المرجع السابق، ص: 152

الشباب أن يقبلوا على التزوج من هؤلاء الفتيات المهجورات، خلافا للعرف الذي قضى في الهند بتحريم الزواج عليهن مدى الحياة، لأنهن منذورات لأزواجهن في عالم الجسد و في عالم الروح. و لما سئل رأيه في المعقمات أنحى عليها أشد الإنحاء، لأنها تجعل العلاقة الجنسية بين الزوجين محض شهوة، و تسلبها المسوغ الوحيد لقيامها، و هو إنجاب الأبناء.

نقائض كثيرة من هذا القبيل في أعماله و في وصاياه. و مرجعها إلى نزعته الروحية و مفتاح شخصيته، و هو الجد في النسك و العناية بالمسائل الأبدية. و مطلبه الأول هو خلاص الروح قبل كل شيء و بعد كل شيء، و ليس في الكون كله ما يعادل عنده هذا الخلاص، لأنه اتصال بالإله مصدر الخير و السعادة.

قال في ترجمة حياته: إن أعمالي في ميدان السياسة معروفة الآن في الهند، بل معروفة على نحو ما في العالم المتحضر بأسره. وهذا كله ليس بذي شأن كبير عندي. فإن ما أردت أن أبلغه في هذه السنين الثلاثين هو تحقيق روحي و تصحيحها، أو هو لقاء الله وجها لوجه، و الوصول إلى الموكشا أو الخلاص.[44]

فالرجل ناسك جاد في نسكه قبل كل شيء و بعد كل شيء، عنايته الكبرى منصرفة إلى المسائل الأبدية التي تحسب بأعمار الأكوان، و لا تحسب بأعمار الآحاد. و لكنه زعيم الهند و قائد أبنائها في طريق الحياة القومية، فلا مناص له من العناية بمسائل

[44] المرجع السابق، ص: 157

الحاضر و شواغل الساعة، و من هنا يأتي التناقض لا محالة. كما لا بد أن يأتي في كل توفيق بين مسائل الأبد الباقي و مسائل الساعة العابرة.

و لذلك نجد غاندي يخالف الحضارة الحديثة ـ الحضارة الآلية ـ لأنه وقر في يقين المهاتما أن آفة العالم كله، و آفة الهند خاصة، هي الحضارة الآلية. لأنها تحجب عن الإنسان مطالبه العليا و تشغله بمطالب لا يحتاج إليها. فهذه الحضارة الآلية لا تغني الإنسان، بل تخلق له الحاجات التي هو غني عنها، و تسخره في سبيل هذه الحاجات المصطنعة.

و ليس لهذه الآفة دواء في عقيدة غاندي غير البساطة الطبيعية، و هي الاستغناء عن كل ما يمكن الاستغناء عنه، و وضع الآلة والصناعة في وضعهما الأصيل، و هو خدمة الإنسان في ضروراته، و سد نقص الطبيعة في خدمة هذه الضرورات.

و هو لا ينكر العلاج بالطب الحديث لذاته، و لا ينكره على طريقة الخرافيين الذين يستبدلون به طبا آخر ينوب فيه علاج الجهل عن علاج المعرفة و التجربة العلمية. و لكنه يرى أن العلاج الطبي ضروري في حالة الحضارة الآلية و لا ضرورة له و لا فائدية في حالة البساطة الطبيعية، و لعله لا يخلو من الضرر إذا شفى به المريض، فاعتمد عليه و انحرف عن سواء الطبيعة لاطمئنانه إلى إمكان الشفاء عن طريق العلاج.

و لا تناقض بين اشتغال غاندي بالصحافة و استهجانه لتهافت الناس عليها و الاشتغال بأحاديثها و أخبارها. فإنما الصحافة عنده صلة روحية بينه و بين قرائه، و ليست للقارئ صلة روحية بصحافة تشغله باللغط و الثرثرة و تضيع عليه الوقت في التطلع و المحال.

فالجد في النسك هو تفسير كل لبس في حياة هذا الناسك العظيم.[45]

[45] المرجع السابق، ص: 157-163

الفصل الثالث: مقاومته العنف و جهاده في سبيل الحرية

غاندي في أفريقية الجنوبية

تسنَّى لغاندي عام 1893م أن يذهب إلى جنوب أفريقيا ممثِّلاً قانونياً لأصحاب شركة مسلمين في قضية تعويضات عن خسائر في بريتوريا، عاصمة الترانسفال في اتحاد جنوب أفريقيا. ما كان للوضع في جنوب أفريقيا، في تلك الفترة من الطفرات الاقتصادية التي تحتدم فيها الصراعات الاجتماعية والعرقية، أن يترك غاندي غير مبالٍ. هناك بدأ المحامي الحَيِيُّ الشاب باكتشاف نفسه. فبينما كان مسافراً ذات مرة في مقصورة درجة أولى في ناتال أمره رجل أبيض بالمغادرة. امتثل غاندي للأمر ونزل من القطار، ثم وصرف الليلة كلها في محطة قطار متفكِّراً، وخرج عازماً على العمل على استئصال التمييز العرقي. لقد راعته كيفية معاملة الجالية الهندية التي كانت آنذاك تعاني التمييز نفسه الذي يعاني منه سكان البلاد الأصليين السود، فشنَّ حرباً لا هوادة فيها على صعيدين: صعيد العمل السياسي، وصعيد الجهاد ضد المظالم الاجتماعية، مطالباً للهنود بالاعتراف بالحدِّ الأدنى من الكرامة الإنسانية والمدنية، محارباً التمييز بوجوهه القانونية والاقتصادية والاجتماعية (يصحُّ هذا أيضاً على

جهاده اللاحق في الهند). وهذه القضية استبْقته في جنوب أفريقيا ليس سنة، كما كان يفترض، بل حتى عام 1914م.[46]

بعيد حادثة القطار دعا غاندي إلى عقد أول اجتماع لهنود بريتوريا حمل فيه على نظام التمييز العرقي. وقد أصاب، بترافعه عن قضية الهنود المظلومين في الناتال والترانسفال، نجاحاً ملموساً أمام المحاكم. وفي عام 1896 ذهب إلى الهند ليصطحب كاستورباي وابنيه إلى أفريقيا. وقد تسربت أخبارٌ عن خطاباته هناك إلى أفريقيا؛ لذا عندما عاد غاندي إلى جنوب أفريقيا رجمه الغوغاء وحاولوا إعدامه إعداماً تعسفيا.[47]

و كانت الفترة التي أمضاها غاندي في جنوب أفريقيا من أهم مراحل تطوره الروحي والفكري والسياسي، حيث أتيحت له فرصة تدقيق قناعاته وثقافته الروحية وتعميقها، والاطلاع على ديانات وعقائد مختلفة، ووضع نهج أصيل في العمل السياسي، وتطبيق قناعاته الأخلاقية والسياسية، حتى على صعيد الحياة الأسرية.[48]

هناك عرف القوانين التي كانت تفرض الحيف فرضا على الآسيويين و الأفريقيين من الشعوب التي يسمونها بالشعوب الملونة، و لاسيما طوائف الزراع و الصناع.

---

[46]ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثاليٍّ عملي

[47]ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثاليٍّ عملي

[48]المرجع السابق

و هناك ألغى أعماله كلها ليعيش عيشة الفاقة و الضنك مع أولئك البائسين، و يشاطرهم الظلم الذي يخضعون له و يريد أن ينقذهم. و قد عهد من معارضيهم حملات الصحافة، ولم يهمل غاندي هذه الحملات، لأنه تولى تحرير صحيفة الرأي الهندي تصدر بالإنجليزية و ثلاث لغات هندية، و لكنها لم تكن قصاراه من الكفاح.

و لقد عهدوا من معارضيهم حملات المنابر، و لم يهمل غاندي هذه الحملات، لأنه كان يخطب و يقنع، يخاطب المتعلم و الجاهل بما يفهمان. و لكنها كذلك لم تكن قصاراه من الكفاح.

و إنما السلاح الجديد الذي جاءهم به هو سلاح لم يخافوه قط و لم يحسبوا يوما أنه يخيف لو أنهم عرفوه. و ذاك هو سلاح المقاومة في غير عنف، أو سلاح المقاومة السلبية كما عرفه ولاة الأمر في حكومات الجنوب.[49]

هكذا وضع غاندي فنَّ مقاومة جديداً كلَّ الجدة، يرتكز إلى مقومات روحية واقتصادية وسياسية في آن معاً. ففي عام 1907م حرَّض كافة الهنود في جنوب أفريقيا على تحدي ما يُعرَف بـ"المرسوم الآسيوي" الذي يفرض على كل الهنود تسجيل أسمائهم وبصماتهم في سجلات خاصة. وقد عوقب على هذا النشاط بالحبس مدة شهرين، ثم أُطلِق سراحه بعد أن وافق على التسجيل الطوعي.

[49] عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 36-39

وقد قرأ وهو يصرف عقوبته الثانية في السجن مقالة الفيلسوف الترانسندنتالي الأمريكي هنري دافيد ثورو (1817-1862م) العصيان المدني التي أثرت فيه تأثيراً عميقاً وعززت قناعته بضرورة رفض الانصياع لنظام جائر. كما قرأ أيضاً كتاب الروائي الروسي العظيم ليف تولستوي خلاصكم في أنفسكم، الذي رسَّخ معارضته لتبشير أصدقائه المسيحيين (ولاسيما "الكويكرز" منهم)، ومقالاته التي كان يدعو فيها إلى المقاومة اللاعنفية للسلطة الفاسدة، فكانت بين الرجلين العظيمين مراسلة هامة بين عامي 1909 و1910. قرأ كذلك كتاب المصلح الإنكليزي جون رَسْكن حتى آخر رجل الذي بشَّر فيه المؤلَّف بكرامة العمل اليدوي ونادى بالعودة إلى الروح الجماعية والحياة البسيطة.[50]

لكن ما من شك في أن التراث الروحي الهندوسي هو الذي زوَّد غاندي بالأدوات الفكرية والنفسية والعملية للعمل الداخلي. إن نهجه الحياتي يندرج فيما يُعرَف في الهند بالكرما يوغا – karma-yoga يوغا العمل؛ وقوامه رياضة يومية دائمة تستهدف سيادة المرء على حواسه وأهوائه وشهواته، بواسطة الاكتفاء بالقليل طعاماً ولباساً، والصيام البدني والنفسي، والطهارة – طهارة القلب والبدن – والصلاة، وجمع الحواس، والصمت الداخلي (نذر غاندي يوم الاثنين من كلِّ أسبوع يوم صمت)، وعدم التعلق بنتائج العمل، نجاحاً أو فشلاً، والزهد في ثماره، بل تقديم هذا

[50] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثاليٍّ عملي

العمل قرباناً للإله. فمن شأن هذه الرياضة أن تشحذ الملكات الفكرية والنفسية والبدنية للمرء، وتُحرِّرها من ربقة الأنانية، بما يجعلها أداة حاضرة طيِّعة لاستقبال التحول الروحي الداخلي وإنفاذ إلزاماته القاهرة في الحياة العملية.[51]

كان بعض الهنود ينقادون لغاندي في حملات المقاومة السلبية، لأنهم يؤمنون مثله باجتناب العنف و التورع من إزهاق كل حياة.

و لكن عمال الجنوب فيهم صينيون و أندونسيون، و فيهم هنود غير مؤمنين بالنحلة التي يؤمن بها الزعيم، و فيهم زنوج و وثنيون لا يعرفون من الأديان غير أديان الهمجية الأولى. و كانوا مع ذلك يطيعونه جميعا و يعملون بما أرادهم عليه. لأنهم مطمئنون إلى إخلاصه الذي لاتشوبه شائبة و لا ترتقي إليه مظنة.

و ينقد عليه العقاد بقوله: هذا الإخلاص النزيه هو العنصر الذي جهله ولاة الأمر و استخفوا بالمقاومة السلبية لجهلهم بفعله في هذه الحركة، و في كل حركة سياسية. فلما التقاهم به الفتى القديس وجدوا منه ما لم يجدوه من قبل في خصومات الساسة، و مشاغبات الدعاة.[52]

قرر غاندي إنشاء تعاونية مشاعية مؤلفة من المقاوِمين المدنيين، أطلق عليها اسم "مزرعة تولستوي"، تيمُّناً بمعلِّمه الكبير، مستبدلاً بثيابه الأوروبية زياً هندياً. وهناك

[51] المرجع السابق

[52] عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 39-40

عكف على القيام بأشغال يدوية من أجل العمال غير المأجورين من الطوائف الخارجية وشجَّع كاستورباي على القيام بذلك أيضاً. ويعود إلى تلك الفترة تمرُّسه على الصيام. وفي عام 1906 نذر وزوجَه العفة بعد أن رُزِقا أربعة أبناء، وأشاد بـبراهماتشاريا (= نذر العفة) وسيلة لضبط النسل وللطهارة الروحية، وبدأ أيضاً يحيا حياة فقر إرادي. وعلى الصعيد السياسي، أسَّس صحيفة الرأي الهندي التي صارت لسان حاله.[53]

ترك غاندي كل عمل يربح منه مال، و وقف ما عنده من المال على معونة المعوزين من المظلومين، و سكن من حيث كانوا يسكنون، و أكل مما كانوا يأكلون، و نزل بالسجن مرات حيث ينزلون، و هجر الحضارة و زينتها في الملبس و الشارة، و عرض نفسه لكل مهانة يتعرض لها أضعف الضعفاء و أفقر الفقراء. فأغمضوا العيون , فتحوا البصائر، و اتبعوه.[54]

في جنوب أفريقيا تعرض غاندي مراراً للضرب وسُجِن وأوشك أن يُعدَم إعداماً تعسفياً. ومع ذلك كلِّه فقد طبَّقت الجالية الهندية هناك مبدأ "القوة النابعة من الروح" بنجاح اضطر الحكومة إلى رفع مظالم كثيرة عن رقاب الهنود. فكان من إنجازاته القانونية الأخرى في أفريقيا إصدار قانون يرخِّص الزيجات الهندية (بعد أن كانت

[53]ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثاليٍّ عملي

[54]عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 40

الزيجات المسيحية وحدها مرخَّصة)، وإلغاء ضريبة كانت مفروضة على العمال المتعاقدين الهنود، ومحاربة مشروع قانون يحرم الهنود من حق التصويت – مؤسِّساً بذلك عام 1894 مؤتمر ناتال الهندي الهادف إلى الدفاع حقوق العمال الهنود – وكذلك مشاريع القوانين الخاصة بتحديد الهجرة. صحيح أنه حصل للهنود من الجنرال سْمَتْس على إلغاء العديد من القوانين الجائرة، لكن أهم إنجازاته إطلاقاً كانت إعادة الثقة إلى أبناء الجالية الهندية المهاجرة، وتنمية إحساسهم بكرامتهم الإنسانية، وتخليصهم من عقدتي الخوف والنقص.

وعلى التوازي، اهتم غاندي بالتهذيب المعنوي والخلقي – بادئاً بنفسه. لقد كان يعتبر بأن أحد أسباب العداء والنظرة الدونية اللذين يكنُّهما البيض للهنود هو نوع من الصفاقة وعدم الاكتراث بالهندام، وحتى القذارة البدنية، لدى قسم من الجالية الهندية. من هنا اهتمامه الشديد بالطهارة، خلقية كانت أم بدنية.

و على الرغم من مناوئته للحكومة، لم يستنكف عن مناصرتها وقت الأزمات والشدائد – إذ نظَّم مجموعات من المتطوعين الهنود خدموا كممرضين إبان الحرب ضد البوورِ والحرب العالمية الثانية – لأنه كان يرى بأن الهنود لم تكن تحق لهم المطالبةُ بحقوق الرعايا البريطانيين ما لم يتحمَّلوا واجباتهم ومسؤولياتهم كاملة كمواطنين. وقد كتب بخصوص الواجب: "المصدر الحقيقي للحقوق كلِّها هو الواجب.

إذا قام كل منا بواجبه فإن الحقوق سوف تتوطد من تلقاء ذاتها. العمل هو الواجب، والحق هو ثمرته[55] ".

و طال صبر غاندي في أفريقية الجنوبية عشرين سنة، و لم يطل صبر المصانع و الشركات، و لا صبر الجند و ولاة الأمور، فانتصر و انكسروا، و أفلحت هذه المقاومة العجيبة في تحطيم سلاح القوة و تحطيم سلاح القانون. و اضطرت حكومات الجنوب إلى نسخ كثير من القوانين التي تحجر على حرية العمال الملونين في الإقامة، أو تقتر عليهم في الأجور، أو تسومهم الطاعة لما لا يطاق من الغبن و الاجحاف.

غاندي في الهند

في كانون الثاني من عام 1915، بعد إنجازه مهمتَّه في جنوب أفريقيا، عاد غاندي إلى الهند بعد نيف و عشرين سنة، فإذا بسمعته تسيقه إلى كل بقعة من بقاعها: سمعة القديس بل سمعة المخلص الموعود أو الأوتارا الذي تنتظره الهند أبدا في أزمة الضيق و الأمل. وقد أطلق عليه رابندرانات طاغور لقب "مهاتما" الذي عُرِف به مذ ذاك.

[55] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

و لم ينغمس غاندي بادئ الأمر في لجة السياسة الهندية التي كانت تضطرب بالخصومات الحزبية و الطائفية في تلك الآونة. لعله أخذ في ذلك بوصية الزعيم جوكهيل الذي نصح له بمراقبة الحالة سنة كاملة ريثما يستجمع فكره على رأي يستخلصه من تجاربه و مشاهداته، أو لعله آثر بطبعه إصلاح الأخلاق تقويم المجتمع و مساعدة العمال و الزراع على طريقته التي جرى عليها في أفريقية الجنوبية.[56]

وإبان السنوات الأولى التي تلت هذه العودة انخرط غاندي في نشاطات متعددة. لقد كان وضع الهند مزرياً يعجُّ بالمظالم الاجتماعية: بؤس يكاد يكون معمَّماً (ولاسيما في الريف)، الوضع الاجتماعي والتعليمي المتدنِّي للمرأة، وضع المنبوذين، والتعصُّب الديني الأعمى الذي يغلب على العلاقات بين الهندوس والمسلمين.

بدأ غاندي أولاً (1916-1917) بمسح ميداني شامل للريف الهندي، كان من نتائجه أنه ناضل لتحسين المصير البائس للفلاحين الذين كانوا يزرعون النيلة لحساب المُلاك الأوروبيين في منطقة تشامباران، وتصدى للدفاع عن اليد العاملة في صناعة النسيج في أحمد آباد. في كلتا الحالتين استعمل غاندي اللاعنف والعصيان المدني والصوم، ولاسيما في إضراب أحمد آباد الذي استهدف الضغط على أرباب العمل، بمخاطبة قلوبهم، وعلى العمال، الذين كانت عزيمتهم قد بدأت تلين؛ وفي كلتا الحالتين

[56] عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 42-44

تُوِّج جهاده بالنجاح. في أثناء ذلك كان الناسك الوديع، مرتدياً الـدهوتي وطاعماً كأفقر الفقراء، معلناً أن العمل اليدوي لا غنى عنه لمن يريد أن يسير على صراط الحق، يكسب ملايين القلوب في فترة جيشان عظيم، حاثاً إياهم على المقاومة وعلى التجدد الروحي. قال: "إن استغلال الفقراء لا يُزال بالقضاء على بضعة أثرياء، بل بتعليم الفقراء الذين يجب تلقينهم عدم التعاون مع سادتهم. فمن شأن هذا أن يوقظ السادة أيضاً. لا بل إني أتنبأ بأن هذا الإجراء سوف يؤدي إلى جعلهم جميعاً شركاء متساوين. رأس المال ليس شراً بحدِّ ذاته، إنما استعماله الشرير هو الذي يجعل منه شراً." لقد وجَّه كلامه لفرد هندي حرٍّ جديد، وقال للهنود بأن الأصفاد التي تكبِّلهم هي من صنعهم، وأمَّلهم بالفوز بحرية أكبر. وقد أنشأ، كما فعل إبان حرب البوورِ، فرقة إسعافية من الطلاب الهنود لمساعدة الجيش البريطاني.[57]

لكن البريطانيين، رغم تقديمهم بعض التنازلات لمطالب الوطنيين، فرضوا في الوقت نفسه إجراءات قمعية جديدة. ففي آذار عام 1919، سنَّت بريطانيا مرسوم روولات الذي مدَّد إلى فترة ما بعد الحرب قمع حريات الكلام والصحافة والاجتماع. عندئذٍ فإن غاندي، الذي ظل حتى ذلك الوقت موالياً للـراج (= السلطان) البريطاني (في عام 1918 شارك، بناءً على طلب نائب الملك، في مؤتمر الحرب في دلهي)، ما لبث

[57] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

أن بدأ يناوئه وقاد الحركة الوطنية بفعالية لم يبلغها أسلافه. كان هدفه المباشر: معارضة القوانين الجائرة بنهج الساتياغراها[58].

خلصت الزعامة لغاندي على النحو الذي يعد أعجب ما حدث من نوعه في تاريخ الزعامات السياسية. و في توجيه ذلك يقول العقاد: لأنك تستطيع أن تقول إنه بلغ الزعامة بغير مجهود، كما تستطيع أن تقول إنه بلغ الزعامة بأكبر مجهود يدخل في طاقة إنسان. فغاندي لم يزاحم أحدا على زعامة وطنه، و لم يزاحمه أحد عليها. في زعامة من ثم بغير مجهود.

و لكن غاندي قد استحق الزعامة باعتراف موافقيه في الخطة و مخالفيه، و اعتراف المستعمرين أنفسهم، لأنه انتصر في أصعب المعارك عل المجاهدين: و هي معركة الشهوات و المطامع، و راض نفسه على ترك كل ما يصعب تركه و احتمال كل ما يصعب احتماله، فدانت له النفوس سهلة القياد بعد أن دانت له نفسه حيث لا تدين النفوس.[59]

في الثالث عشر من شهر أبريل سنة 1919م وقعت أكبر وصمة في تاريخ الاستعمار البريطاني للهند، و هي مذبحة أمرتسار، و كانت هذه المذبحة أضخم خطأ تجمعت

[58]ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

[59]عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 53-54

فيه أخطاء الإدارة و السلطة العسكرية، في حساب السياسة، و حساب المبادئ الإنسانية، و حساب العرف و النظام.

كانت الهند كلها تشتعل بالسخط و الغضب، و كان الهندوسيون و المسلمون على السواء على أشد النقمة ن الحكومة البريطانية، لأنها أخلفت وعودها لهم، و ناصبت الخلافة الإسلامية عداء صريحا في تأييدها هجوم اليونان على أرض الأناضول، بعد أن حارب المسلمون في صفوفها معتمدين على وعد قاطع منها ألا تمس الخلافة الإسلامية بعد هزيمة الجيوش التركية.

و خرج غاندي في رحلة سلمية يهدئ أبناء وطنه و يجمع الهندوسيين و المسلمين على خطته في اجتناب العنف و إهراق الدماء. فقبضت عليه الحكومة و أعادته إلى بومبائ. و سرى الخبر في أرجاء الهند فوقعت بعض حوادث العدوان هنا و هناك. و كانت أمرتسار من المدن التي وقعت فها هذه الحوادث و نهب فيها بعض الدور و الدكاكين.

فوصل الجنرال سير ميشل داير إلى المدينة المدينة يسبقه إعلان ـ لم يعلم به أحد ـ بمنع الاجتماعات، و كان اليوم الثالث عشر من شهر أبريل موعد اجتماع ديني في ميدان محصور يسمى جليانوالا باغ، فاعتقد الجنرال أن المجتمعين يتحدونه و يعصون أمره. فأمرهم مرة أخرى بالتفرق، فلم يستطيعوا أن يتفرقوا على عجل لأن المكان محصور، فأطلق عليهم مدافعة الرشاشة حتى نفدت ذخيرته. قتل في هذا

اليوم عدد عظيم من المجتمعين و المجتمعات يقدرهم بعضهم بأربعمأة، و يبلغ به بعضهم أربعة أضعاف هذا العدد. و لم يكتف الجنرال بإهراق الدماء حتى أضاف إليه إذلال النفوس. فأمر ألا يعبر الهنود طرقا معينة إلا زحفا على الركب، لأنها الطرق التي أهين فيها بعض السيدات خلال الحوادث التي وقعت قبل وصوله على المدينة.[60]

وإذ شعر الهنود بعجزهم المادي أمام البطش البريطاني، وجد من كان منهم ذا حسٍّ سياسي ناضج أن برنامج غاندي في المقاومة اللاعنفية أضحى أملهم الوحيد. كان واحد من هؤلاء هو الشريف الشاب جواهرلال نهرو الذي انتسب إلى المؤتمر الوطني الهندي بعيد عودته من إنكلترا. وبهذه الحركة ساعد نهرو هنود كثيرين متشرِّبين للثقافة الغربية على حسم ترددهم أمام البعد الروحي الصريح للمذهب الغاندي .

كان لمنزلة غاندي في قلوب الناس دور حاسم في ريادته للمؤتمر (ائتلاف من مختلف الجماعات الوطنية) في جلسة عام 1919. كانت أحداث 1919 في نظره حاسمة؛ فشعر بضرورة أن يكرس جماع قواه للعمل السياسي من أجل الاستقلال، مسلحاً بثلاثة حجج: مرسوم روْلات، مجزرة أمريتسر، وحركة "الخلافة" (حركة احتجاج المسلمين الهنود الذين تخوفوا من فرض الحلفاء على تركيا شروطاً للسلام قاسية). وفي عام 1920 صوَّت كلا المؤتمر والرابطة الإسلامية (التي تأسَّست لكي

[60] عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 59-61

تقطع الطريق على انفراد المؤتمر بتمثيل الحركة الوطنية) متبنِّيين البرنامجَ الغاندي في اللاتعاون اللاعنفي ابتغاء نيل السواراج =) swarāj الحكم الذاتي، الاستقلال). وبذلك أصبحت الحركة الوطنية حركة جماهيرية. لقد خَلُصَ غاندي "بعد لأي إلى أن الصلة مع الإنكليز جعلت الهند أعجز مما كانت عليه في أي يوم مضى، سياسياً واقتصادياً." لكن حرية الهند لم تكن في نظره مجرد مسألة سياسية، لأنه "ساعة تتطهر الهند تصبح حرة، وليس قبلئذٍ بلحظة." كما كتب: "يود البريطانيون أن يجري القتال بطلقات الرشاشات. لذا فإن الوسيلة الوحيدة لضمان انتصارنا هي أن نفعل ما من شأنه أن ينقل المعركة إلى مجال نملك نحن السلاح فيه فيما هم يعدمونه".[61]

وهكذا ردَّ غاندي على تعنُّت بريطانيا باللاتعاون مع المحاكم والمحلات والمدارس البريطانية؛ الأمر الذي اضطر الحكومة إلى إعلان إصلاحات مونتاغو–شلمسفورد. وفي عام 1922 حوكِم غاندي وحُكِم عليه بالسجن مدة 6 سنوات، ثم أطلِق سراحه لإجراء عملية عاجلة لاستئصال الزائدة الدودية (تلك كانت آخر مرة يُحاكَم فيها).[62]

شهد العالم في ربع القرن الذي أعقب هذه الأحداث أغرب مواجهة عرفها التاريخ قط: فمن جهة، وقف عملاق الإمبراطورية البريطانية الجبار، يمثله نائب الملك محاطاً بقوة عسكرية ذات طَوْل؛ ومن جهة أخرى، المهاتما اللطيف، كما مثَّله رسامو

[61] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

[62] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

الكاريكاتير، منكباً على دولاب مغزله، عاري الصدر، مئتزراً بحِقائه. تشكل موضوعة الإنسان مقابل الآلة ركناً آخر في فلسفة غاندي العملية. ذلك كان المبدأ المحرِّك للـخادي (= القماش القطني المحلِّي) ولحركة الـسواديشي (= الاعتماد على الذات) التي دعا فيها غاندي الهنودَ إلى غزل ثيابهم ونسجها بأنفسهم بدلاً من الاعتماد على البضائع الإنكليزية (خاصة: 1925-1927 و1932-1935).[63]

لقد كان قصده ضرب عصفورين بحجر واحد: إصابة بريطانيا في تجارتها الخارجية؛ والترويج لتصنيع وبيع المنتوجات اليدوية المحلية. كان هذا الهدف يتضمن مزايا عدة: تحسين مستوى المعيشة في القرى (بإيجاد عمل للملايين من الفلاحين الهنود إبان شهور الخمول الطويلة)؛ إيجاد تضامن بين المدن والأرياف (بتشجيع أهالي المدن على شراء الـخادي)؛ وإعادة الاعتبار للعمل اليدوي (وفي هذا أظهر غاندي نجابة فذَّة كتلميذ لرَسْكِن). لقد استحسن غاندي مثال الاكتفاء الاقتصادي للقرية. وقد واحَد ما بين التصنيع والمادية، شاعراً أنه خطرٌ يهدد بسلب الإنسان إنسانيتَه ويحكم عليه بالعقم الروحي. من هنا كان الإنسان الفرد – وليس المردود الاقتصادي – هو مناط همِّه المركزي؛ إذ لم يفقد قط إيمانه بالخير الذي فُطِرَت عليه الطبيعة الإنسانية.[64]

[63] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

[64] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

بيد أن القتال لم يكن غير متكافئ كما يُظَنُّ: كان الرجل الصغير مدججاً فعلاً بأسلحة – معنوية بالطبع – من شأنها أن تُنزِل بالخصم ضربات موجِعة. كان البريطانيون يجدون أنفسهم في وضع حرج جداً كلما سكب غاندي عليهم نور محبته، كلما استلقى أنصاره على سكك الخطوط الحديدية، وكلما كدَّس ساتياغراهيون آخرون أحجار التبليط أمام المحلات البريطانية. وفي كلِّ مرة كانت هذه الاحتجاجات تفضي إلى أعمال عنف كان غاندي يلغي الحملة ويكفِّر عن تعدِّيات أتباعه بصوم جديد.

الصوم ومسيرة الاحتجاج

كان التكنيك الآخر الذي استعمله غاندي هو الصوم. لقد كان راسخ الإيمان بأن الوحدة الوطنية بين الهندوس والمسلمين أمر طبيعي؛ فقام صائماً مدة 21 يوماً لتقريب الملَّتين؛ كما صام أيضاً لدى إضراب عمال المطاحن في أحمد آباد.

بحلول عام 1930، نظَّم غاندي، برفقة 78 مريداً، "مسيرة ملح" مدتها 24 يوماً نحو البحر احتجاجاً على احتكار الحكومة لتصنيع الملح وفرضها ضريبة على الملح الذي يستعمله الهنود، الأمر الذي كان يشكل عبئاً باهظاً على الفلاحين الفقراء. وقد سار عدة آلاف من السائرين مسافة 241 ميلاً حتى بلدة دَنْدي الساحلية، حيث قبض المهاتما على حفنة ملح ورفع يده بها عالياً متحدياً الحكومة. وقد أطلقت هذه الحركة

الرمزية انتفاضة وطنية شاملة قام فيها فلاحون كثر بإنتاج الملح إنتاجاً غير مشروع، بينما قام متطوِّعو المؤتمر ببيع الملح المهرَّب في المدن.[65]

لقد كان من آثار المسيرة أنْ تعزَّز اعتقادُ الوطنيين في إمكان الاستهانة بالحكم الأجنبي والاستغناء عنه. فكان ردُّ الحكومة اعتقال 60000 منهم، بمن فيهم غاندي نفسه. لكن غاندي في السجن لم يكن يقل إحراجاً للسلطات البريطانية منه طليقاً. ولقد شلَّت الانتفاضةُ المتناميةُ الإدارةَ، بما اضطر الإنكليز – الذين وعَّتهم الحركة أكثر إلى أي حدٍّ كانوا يخضِعون الهند – في النهاية إلى الإفراج عن غاندي وغيره من زعماء المؤتمر وإلى التفاوض معهم.

لقد تحلَّى غاندي بمرونة سياسية لم تخلُ من تقديم بعض التنازلات التي تخفف الحرج عن الخصم وتيسِّر له شيئاً من حرية الحركة لمراجعة نفسه. ففي أيلول عام 1931 تفاوض غاندي في دلهي مع نائب الملك، اللورد إروِن، على ميثاق يلغى بموجبه العصيان المدني (لم تتقيد الهند بهذا التنازل في الواقع)، ويُفرَج عن السجناء، ويجاز تصنيع الملح على الساحل، ويحضر حزبُ المؤتمر المائدةَ المستديرة الثانية في لندن. وقد حضر غاندي بوصفه الممثِّل الوحيد عن المؤتمر. وفي إنكلترا أعلن ونستون تشرتشل، المتزلِّف المرموق للإمبراطورية البريطانية ("التي لا تغيب عنها الشمس"!)، رافضاً لقاء غاندي، أن "من المنذر، وحتى من الباعث على السخط،

[65] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

رؤية السيد غاندي، المحامي المشاغب الرديء، منتحلاً الآن شخصية الفقير الذائعة الصيت في الشرق، يصعد شبه عارٍ سلالم قصر نائب الملك [...]، لكي يتحادث مع ممثل الملك–الإمبراطور محادثة الندِّ للند." مع ذلك فقد توالت المحادثات؛ وللمرة الأولى – رغم الفشل الذريع الذي تمخَّضت عنه المائدة المستديرة – اضطرت بريطانيا إلى مخاطبة الهند – أو بالأحرى أحد الهنود – على قدم المساواة معها.[66]

غاندي يصل إلى 10 شارع داوننغ، مقر رئاسة الوزراء البريطانية في لندن، للتحاور مع رئيس الوزراء رامزي مكدونلد.

من القضايا الأخرى التي اعتنقها غاندي تحسين حال "المنبوذين" – أعضاء الطوائف الدنيا – الذين أطلق عليهم اسم هارِجان" =) Hārijān أبناء الله") واعتبر وضعهم المزري سُبَّة في جبين الهند، لا تليق بأمة تسعى لتحقيق الحرية والاستقلال والخلاص من الظلم؛ فالسواراج، برأيه كان متعذراً ما دام هذا التمييز موجوداً. وقد تصاعد جهاده عندما قررت بريطانيا بعد المائدة المستديرة الثانية تسجيل الـ 50 مليوناً من المنبوذين في قائمة انتخابية على حدة. ففي 20 أيلول 1932، بعد فشل مراسلته مع الحكومة وتبنيها القانون، بينما كان في سجنه، شرع في صيام "حتى الموت" احتجاجاً على قرار الدولة هذا الذي رأى فيه تكريساً نهائياً لمنزلة المنبوذين الاجتماعية المتدنية (وبهذا واجه زعيمهم د. بهيمراو أمبدكر الذي كان يؤيِّد انتخابات

[66] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

منفصلة كضمانة سياسية لتحسين حالهم). وفي اليوم السابع، بينما كانت الهند بأسرها، مشدودة صامتة، تتابع تدهور حالة غاندي الصحية، وبعد أن تمكَّن القادة والزعماء الدينيون بصعوبة من ثني أمبدكر عن موقفه، قَبِل البريطانيون بالتنازل الذي وضع حداً لخطر التمييز السياسي بين المنبوذين وهنود الطوائف وتم التوصل إلى ميثاق بونا الذي قضى بزيادة عدد المقاعد المخصصة للنواب المنبوذين وإلغاء نظام التمييز الانتخابي. وكنتيجة لصوم غاندي فُتِحَت بعض المعابد لطوائف خارجية للمرة الأولى في تاريخ الهند. وقد تواصل جهاد غاندي هذا: رمزياً عبر مقالاته في أسبوعيَّته هارجان، وفعلياً بضغطه، اعتباراً من عام 1937، على الوزراء المؤتمريين لكي يلغوا قانونياً التشريعات التي تحدُّ من تحسين وضع المنبوذين.[67]

كان نفوذ غاندي بين الهنود يقوم على التماسه للمُثُل القديمة للحكمة الأزلية، كما تجلَّت في الهندوسية. لكن هذه القوة كانت تنطوي على خطر ما لبث أن ظهر: أثار تأثير الأغلبية الهندوسية على المؤتمر شكوك ومخاوف المسلمين الذين توجَّسوا – بإيعاز من البريطانيين، كما نظن – من القوة المتعاظمة للهندوسية المجاهدة المستيقظة من سباتها. فاعتباراً من عام 1916، اقتصر الاتفاق بين الرابطة الإسلامية وبين المؤتمر على الإجماع على مسألة الاستقلال الذي كان كلاهما يطالب به، وعلى مسائل ثانوية، مثل إلغاء الخلافة الإسلامية.

[67] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

غير أن الوفاق ما كان ليدوم. فمنذ عام 1920، يوم وافق المؤتمر على برنامج اللاعنف الغاندي، استقال من المؤتمر الزعيمُ الإسلامي محمد علي جناح الذي كان من قدامى المنتسبين إليه. كان جناح، الذي تلقى تعليماً بريطانياً تقليدياً، محامياً في مومباي، كالحاً، متغرِّباً، لامعاً، ظاهر العنجهية أحياناً. ومع أنه لم يكن مسلماً متزمتاً، ولا حتى متديناً ورعاً بصفة خاصة، فقد آلت إليه زعامةُ الرابطة الإسلامية، وسرعان ما صار المنافس السياسي لغاندي.

قبل حلول عام 1924 كانت مسألة الخلافة محسومة – فالزعيم التركي الشاب مصطفى كمال ("أتاتورك") كان قد أبطل هذه المؤسَّسة – وتلاشت معها الآمال في الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس. وفي عام 1928 أصدر المؤتمر مشروعاً يوصي بإنشاء إدارة مركزية، ففسَّر بعض المسلمين بنوده تفسيراً مفاده أن حقوقهم لم تكن مأخوذة فيه بالحسبان بما يرضي. وقد رأى جناح في هذا المشروع ما يؤكد "مخاوفه" بأن يصير 80 مليون مسلم هندي أقلية مضطهَدة لا يؤبه بها في هند جَلَتْ بريطانيا عنها، فيها 250 مليون غير مسلم. من هنا طالب جناح بالاستمرار في النظام الانتخابي المعمول به الذي يصوِّت بمقتضاه كل من الهندوس والمسلمين على حدة، ونادى بإقامة نظام فدرالي تتمتع فيه المقاطعات ذات الأغلبية المسلمة بنوع

مخفَّف من الحكم الذاتي. وقد فنَّد المؤتمر رأيه بقوله إنه ينسجم مع تكتيك البريطانيين "فرِّق تَسُدْ".[68]

جرى تغير سياسي عميق في الهند إبان السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية. فقد بيَّنت حركة غاندي والنقاشات الحادة التي حرَّضها في لندن مشروع قانون 1935 الذي منح الهنود حكماً ذاتياً محدوداً أن الإمبراطورية لم تكن من المنعة بما كان يُظَن. وهكذا بدأ الوطنيون الهنود رويداً رويداً يفكرون ليس في كيفية إجلاء الإنكليز عن بلادهم وحسب، بل وفي كيفية حكم الهند بعد جلائهم عنها. فكان من نتائج هذا التغير في المنظور تصدُّر الخلاف بين الهندوس والمسلمين للنقاش الدائر آنذاك. ففي عام 1936، عندما حصلت ستة مقاطعات هندية من أصل إحدى عشرة على حكومات مؤتمرية فإن الرابطة الإسلامية ندَّدت بها جميعاً بوصفها دكتاتوريات هندوسية.

كذلك في قلب المؤتمر نفسه كانت خطوط القوى تنزاح. فمع تزايد احتمالات الاستقلال واقترابه ترك غاندي انطباعاً بأنه ينسحب إلى الكواليس. وهكذا قرر عام 1934 الاستقالة من حزب المؤتمر، وجعل حتى 1939 يكرس جلَّ طاقته للتخفيف من بؤس الجماهير، لمساعدة المنبوذين، للترويج للغزل وللتعليم الأساسي، ولتكريس اللغة الهندية لغة وطنية (مع أن لغته الأم كانت الكوجاراتية)؛ كما عمل على تحسين نظام الرعاية الصحية وطرائق الزراعة ووضع مشروعات للتربية الريفية والنهوض

[68] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

بالريف. إبان تلك الستين كان التعاون لصيقاً بين المهاتما وبين جواهرلال نهرو في إطار اللجنة العاملة للمؤتمر. ففي عام 1937 شجع الحزبَ على المشاركة في الانتخابات معتبراً أن الدستور الذي تم التوصُّل إليه عام 1935 يشكل ضمانة كافية وحداً أدنى من المصداقية والحياد.[69]

كانت الحرب العالمية الثانية إيذاناً ببلورة المعارضة بين بريطانيا والوطنيين الهنود، وكذلك بين غاندي وقسم من المؤتمريين. ففي عام 1939 أعلن نائب الملك، بدون الرجوع إلى لندن، أن الهند في حالة حرب ضد المحور. وقد ردَّ الوطنيون مطالبين بالاستقلال في مقابل التعاون، متذرِّعين بأنْ وحدها هند مستقلة يمكنها أن تشارك مشاركة حرة في الحرب على قوى المحور؛ لكن لندن رفضت مطلبهم. وهكذا، للمرة الأولى، تنصَّل قسم من المؤتمريين من آراء معلِّمهم، موافقين على استخدام العنف المسلَّح، بينما ظل هو وفياً للمقاومة اللاعنفية. وفي أواخر عام 1940 احتجَّ آلاف الهنود – يقودهم غاندي – على الحرب احتجاجاً فردياً وقاموا بحملة عصيان أدَّت إلى اعتقالهم. وقد اتسع هذا العصيان واستمر حتى عام 1941م حيث كانت بريطانيا مشغولة بالحرب ويهمها استتباب أوضاع الهند حتى تكون لها عوناً في المجهود الحربي. ولكن عندما زحفت اليابان على آسيا قامت بريطانيا، الحريصة على ضمان تعاون الهند النشط، بالإفراج عن الزعماء الوطنيين وبدأت تتفاوض معهم، فأرسلت

[69] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

عام 1942 بعثة لهذا الغرض عُرِفَت باسم "بعثة كريبس"؛ لكن جهودها، كما توقع غاندي، باءت بالفشل. لقد كان المؤتمر على استعداد لقبول عرض بريطانيا بنقل كافة السلطات إلى الهنود، ما عدا الشؤون العسكرية، ما دامت الحرب مندلعة. لكن كلا المؤتمر والرابطة الإسلامية رفض المشروع البريطاني في هند مستقلة، لكنْ بعد انتهاء الحرب. لقد رأى المؤتمر بأن تنازلات بريطانيا لم تكن كافية، وبأن وحدة الهند لم تكن مضمونة بما يكفي؛ بينما تخوَّف المسلمون، من ناحيتهم، من المصير الذي ينتظرهم في ظلِّ هند موحَّدة. وفي آب 1942م اقترح غاندي حملة لاتعاون شاملة وخاطب الإنجليز بجملته الشهيرة: "اتركوا الهند وأنتم سادة." وقد صوَّت المؤتمر على قرار "غادروا الهند Quit India "مطالباً بالاستقلال الفوري. وفي لندن زمجر ونستون تشرتشل علناً بأنه لم يكن قد صار "رئيس وزراء جلالة الملك لكي يرأس تصفية الإمبراطورية البريطانية[70] ."

كان ردُّ البريطانيين عنيفاً جداً؛ إذ شنت السلطات البريطانية عام 1942 حملة اعتقالات جديدة وأودعت السجن غالبية القادة الوطنيين، بمن فيهم غاندي ونهرو وغيرهما من زعماء المؤتمر، الأمر الذي ألهب أعمال العنف في كل أنحاء الهند احتجاجاً على الممارسات القمعية غير المسبوقة ضد الجماهير. وعندما حاول البريطانيون إلقاء اللوم على غاندي صام ثلاثة أسابيع في السجن؛ لكنه أصيب فيه

[70] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

بالملاريا، مما أرغم السلطات على الإفراج عنه في نيسان 1944 (بذلك أمضى من حياته في السجن ما مجموعه ست سنين).[71]

عندما فاز حزب العمل بانتخابات 1945 في بريطانيا لاح استقلال الهند فجأة مرتسماً في الأفق؛ لكنْ في الآفاق الأبعد كمنت مشكلة كيفية توصل الهنود – هندوس ومسلمين – إلى التفاهم على مشروع حكومة مستقلة. عندما خرج غاندي من السجن لم يألُ جهداً في الحيلولة دون قيام دولة إسلامية منفصلة في باكستان كان محمد علي جناح مصراً على قيامها. وقد نصحت بعثة وزارية بريطانية في آذار 1946 بعدم التقسيم واقترحت عوضاً عنه هند موحَّدة ذات برلمان فدرالي. وفي آب، أجاز نائب الملك ويفل لنهرو أن يشكِّل حكومة مؤقتة. اقترح غاندي يومها أن يشغل جناح منصب وزير الدفاع، بل ذهب حتى الطلب من نهرو أن يتنحَّى لجناح عن رئاسة الوزراء، مقابل أن يوافق على الحفاظ على وحدة البلاد؛ لكن جناح رفض لوجوه معقولة وأعلن بدلاً من ذلك في 6 آب "يوم عمل مباشر". ولقد أسفر ذلك اليوم وأيام الشغب التي تلته في كلكتَّا وحدها عن سقوط أكثر من 5000 قتيل و 15000 جريح. ومن هناك انتشر العنف إلى البلاد كلِّها.[72]

---

[71] المرجع السابق

[72] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

أصاب المهاتما من جراء ذلك غمٌّ شديد، فمضى إلى البنغال قائلاً: "لن أغادر البنغال حتى يخمد آخر بصيص للشغب." لكن 4500 آخرين لقوا مصرعهم في بيهار، وهو ما يزال في كلكتَّا. عندئذٍ، أنذر غاندي، البالغ من العمر آنذاك السابعة والسبعين، أنه سيصوم حتى الموت حتى يثوب البيهاريون إلى رشدهم. فذهب إلى نواخلي، إحدى مدن البنغال ذات الأغلبية المسلمة، وقال إنه سيضع مقولة "افعل أو مُتْ" على المحك: فإما أن يتعلم الهندوس والمسلمون أن يحيوا معاً وإما أن يموت كفارة عنهم. ولقد هدأ الوضع هناك، لكن أعمال الشغب تواصلت في أماكن أخرى.

خيبة الاستقلال

بحلول عام 1947 أعلن وزير الخارجية البريطاني كلمنت آتلي بأن بريطانيا ستغادر الهند "في آب 1948 كأقصى حدٍّ". ولكي يمهِّد لانتقال السلطة عيَّن آتلي في منصب آخر نائب للملك في الهند اللورد ماونتباتن الذي وصل إلى الهند في آذار ولعب وزوجَه دوراً غامضاً جداً في تلك الفترة. وقد تشاور نائب الملك مع الجانبين؛ و لكنه لم يمكن الاتفاق على قبول حكومة واحدة تشمل الهند بأسرها و أُعلِنَت الهند وباكستان دولتين مستقلتين منفصلتين في 15 آب 1947.

غاندي متوكئاً على مريدتين أثيرتين من أقربائه كان يسميهما "عكازيه" إبان جولة محاضرات. كان الاستقلال بهذه الشروط هزيمة حقيقية بنظر غاندي (وصف التقسيم بأنه أشبه بـ"تشريح كائن حي"!). فقبلئذٍ بوقت طويل، يوم كان ما يزال في جنوب

أفريقيا، أعلن بأن "الامتحان الفاصل" لعمله هو تعزيز الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس. أما الآن فكانت الطائفتان تغليان حقداً، ولم يعد يستمع إلى ندائه من أجل السلام والتآخي إلا ثلة من المريدين المخلصين. لذلك نعت الانفصال بـ"المأساة الروحية" ورفض المشاركة في احتفالات الاستقلال. وللمرة الأولى في حياة غاندي، بدأ أناس عاديون يتعرضون له؛ فكان الهندوس يسبُّونه زاعمين أنه يفضل عليهم المسلمين (لأنه طالبهم بتقديم تنازلات كبيرة للأقلية المسلمة ضماناً لحقوقها)؛ وكان المسلمون يتهمونه بأن يعرقل قيام دولة باكستان المستقلة.[73]

بتر الاستقلالُ حوالى ربع أراضي الهند، وقسَّم كلاً من البنجاب في الشمال الغربي والبنغال في الشرق إلى شطرين. لقد كانت الاضطرابات بين الهند والمسلمين، التي اصطلح البريطانيون على استحياء على تسميتها "فوضى طائفية"، أمراً شائعاً في الهند، لكن تاريخ الهند لم يعرف يوماً ما يشبه حرب الإبادة الأهلية المروِّعة التي نشبت في أعقاب جلاء البريطانيين. فمن جراء الانفصال اقتُلِع 12 مليوناً من البشر من جذورهم وهُجِّروا، وتسبب نزوحهم في مجزرة متبادلة قلما فاقتها مجازر أخرى وحشية وهمجية: صارت سواقي الهند حمراء من دم الهندوس والمسلمين، وفاق عدد

[73] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

القتلى أيامئذٍ الـ500000، فيما لم يُعرَف قط عدد الجرحى والمنتهكات أعراضهن أو المخطوفين إلى الآن.[74]

عندما احتفلت نيودلهي بجلاء البريطانيين من الهند في 15 آب، كان غاندي في كلكتَّا حيث ذهب في محاولة لوقف المذبحة. كان يومئذٍ في الثامنة والسبعين، وقد رأى بأمِّ عينه أن عمله على تكريس التآخي بين الهنود الذي دام 32 سنة صار يوطئ بالأقدام، وأن خيانة تعليمه في اللاعنف قد أجهضت عملية الاستقلال كما كان يتمناه. لكن جماهير الهند ظلت على حبِّها له؛ فكانت الحشود تهب لسماعه يتكلم. فمع أن الشعب نبذ مذهبه فقد ظل يعتبره قديساً؛ وفي المناطق التي زارها توقف القتال سريعاً. لكن الزمن كان يعانده؛ إذ قام متطرفون بتحريض شجارات، وانفجرت قنبلة في إحدى اجتماعات الصلاة التي عقدها في نيودلهي. وفي 1 أيلول 1947، عندما اقتحم حشدٌ غاضب من غوغاء الهندوس المنزلَ الذي كان مقيماً فيه في كلكتَّا شرع غاندي في صيام جديد "لا ينهيه حتى تثوب كلكتَّا إلى رشدها". وبالفعل لم يُنهِ المهاتما صومه حتى نال وعداً من زعماء الهندوس والمسلمين كافة بألا تتكرر أعمال القتل.[75]

مريدو غاندي ساهرين عليه إبان صومه الأخير عام 1948. عبثاً احتج غاندي على سوء معاملة الهندوس لـ"إخوانهم المسلمين ."

[74]ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

[75]ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

لم ترق دعوات غاندي إلى الإخاء بين الهندوس والمسلمين للكثيرين، واعتبرتها بعض الفئات الهندوسية الأصولية، بتأليب من جهات "مجهولة"، خيانة عظمى. وفي 13 كانون الثاني بدأ غاندي آخر صوم له في دلهي، مصلياً من أجل وحدة الهند. وفي 30 كانون الثاني عام 1948، كان غاندي ذاهباً متأخراً إلى إحدى اجتماعات الصلاة؛ وأمام الحشد الذي كان يطوِّقه كان يضم راحتي يديه مسلِّماً، جرياً على التقليد. عندئذٍ قام هندوسي في الخامسة والثلاثين يدعى ناتورام غودسي، صحافي سابق في صحيفة أسبوعية هندوسية متطرفة في بونا، استطاع أن يشقَّ لنفسه بمنكبيه طريقاً بين الحشد، بإشهار مسدس وأطلق على المهاتما ثلاث رصاصات قاتلة. تمتم غاندي هاي رام ("يا رب!") وأسلم الروح.[76]

[76] ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثالي عملي

الفصل الرابع: إدراك فلسفة غاندي في "روح عظيم"

الأهمسا[1]:

كان غاندي سياسيا، و لكنه لم يكن في سياسته كسائر الساسة، لأنه كان يعمل في سياسة قومه بأسلوب غير أساليب الساسة، بل غير أساليب الدعاة الشعبيين في أكثر الأحيان. كان يعمل في السياسة بأساليب القديسين، و كانت الأهمسا أو المقاومة السلبية رأس ماله في كل خطة يواجه بها قومه، أو يواجه بها الدولة البريطانية، أو يواجه بها كائنا من كان.

فما هي هذه الأهمسا التي صيرت غاندي قديسا و طوعت له تلك القوة التي صنع بها ما لم يصنعه زعيم من زعماء بلاده؟

هي مجموعة من المبادئ تقوم على أسس دينية وسياسية واقتصادية في آن واحد ملخصها الشجاعة والحقيقة واللاعنف، وتهدف إلى إلحاق الهزيمة بالمحتل عن طريق الوعي الكامل والعميق بالخطر المحدق وتكوين قوة قادرة على مواجهة هذا الخطر باللاعنف أولا ثم بالعنف إذا لم يوجد خيار آخر.

---

[1] عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص: 94-98

الأهمسا هي ترك العنف شعورا بالقوة و القدرة النفسية، و ليست هي ترك العنف شعورا بالضعف و عجزا عن المقاومة. و ليست هي مجرد حب السلامة من طريق المسالمة، فإنه لوكانت كذلك لكانت أسهل مذهب من مذاهب الحياة يدعى إليه و يستجاب، لأن حب السلامة غريزة في جميع الأطباء. و لكن الأهمسا هي في الواقع أصعب المذاهب في الدعوة، و أصعبها في الاستجابة، و أعسرها على التنفيذ و المراعاة.

فهي أصعب من الدعوة إلى القتال. لأن الدعوة إلى القتال لم تعدم مجيبا في وقت من الأوقات، و هي أصعب من الدعوة إلى الشجاعة، لأن الشجاعة قد تكون مطاوعة لدواعي الفطرة، أو دواعي الحماسة الاجتماعية، فلا تعدم الدعوة إليها مجيبين في كل حين.

هي أصعب من هذه الدعوات و أمثالها، لأنها تتطلب مغالبة للنفس لا تتطلبها دعوة أخرى، و قد تتطلب هذه المغالبة بغير فخر لصاحبها و بغير صدى من الإعجاب في نفوس أبناء قومه، و لعلها على نقيض ذلك تعرضه للخزي و الازدراء.

و قد تنحصر الشجاعة في ضبط النفس و استجماع قوتها في وجه الخطر، و لكن الأهمسا تكلف العامل بها أن يضبط نفسه، و يستجمع قوته في وجه الخطر، و في وجه الإغراء و في وجه السمعة السيئة، فلا يهمه أن يوصف بالجبن إذا كان هو على يقين أنه ليس بجبان و أنه لا يخاف.

و إذا قلت "لا خوف" فقد حصرت الشجاعة من جميع أطرافها، سواء أردت الشجاعة في المسائل الجسدية أو أردت الشجاعة في المسائل الأبدية.

و لكنك لا تحصر الأهمسا بهاتين الكلمتين، لأنها تنفي الخوف و تنفي معه الكراهية. فلا خوف و لا كراهية، بل شجاعة و محبة. و هاتان الخصلتان هما الأهمسا في اللباب.

و قد قال غاندي غير مرة: إنه يفضل العنف على الجبن و الفرار من الخطر. قال ذلك في إبان الفتنة الهندية سنة 1920م، و قال يومئذ إنه يفضل العنف ألف مرة على مسخ النوع برذيلة الجبن و الفرار. و من كان لا يبالي أن يقتل و يقتل فهو خير ممن يفر من النزال، لأنه يخاف القتل في مشتجر القتال.

أساليب اللاعنف

وتتخذ سياسة اللاعنف عدة أساليب لتحقيق أغراضها منها الصيام والمقاطعة والاعتصام والعصيان المدني والقبول بالسجن وعدم الخوف من أن تقود هذه الأساليب حتى النهاية إلى الموت. واللا عنف لا تعنى السلبيه والضعف كما يتخيل البعض بل هي كل القوة إذا آمن بها من يستخدمها. من غير وحدانية. وقد قال غاندي

تعليقا علي سياسة اللاعنف: "إن اللاعنف هو أعظم قوة متوفرة للبشرية..إنها أقوي من أقوي سلاح دمار صنعته براعة الإنسان"[2].

شروط نجاح اللاعنف

يشترط غاندي لنجاح هذه السياسة تمتع الخصم ببقية من ضمير وحرية تمكنه في النهاية من فتح حوار موضوعي مع الطرف الآخر. وبعد الاعتصام قام غاندي بالاعتصام وزيادة عمل نسبة الكلكلي في الهند لان الكلكلي هو من أحد الاثار التربوية في الهند ويعتمد استيراد الهند على الكلكلي.[3]

المرأة[4]:

كان غاندي مؤمنا بتناسخ الأرواح، و كان كذلك يؤمن بوجوب الانقطاع عن علاقات الجسد لبلوغ "الموكشا" أو الخلاص. و لكنه كان ينكر زواج الطفولة، كما ينكر تأيم الأطفال، و كان له عمل مشكور في إصلاح الزواج و إبطال عادة التأيم، بل كا يوصي الشبان باختيار زوجاتهم من بين المتأيمات خاصة، لأنهن لا يحسبن متزوجات بأي حسبان صحيح.

[2]محمد نمر مفارجة: غاندي و المقاومة السلمية

[3]موفق مصطفى السباعي: هل الثورة السلمية لوحدها كافية لإسقاط الحكم الديكتاتوري، موقع مسلم نت

[4]عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص:130-139

و قد ثار عليه أنصار القديم أعنف ثورة حين تصدى لإبطال هذه العادة و أعلن نصحيته للشبان بالتزوج من البنات المتأيمات. كان هؤلاء الجامدون يطيقون أن يبطلوا هذه العادة عملا، و لكنهم لا يطيقون أن يقدح فيها زعيم من زعمائهم علانية كأنها سخف لا يجوز اعتقاده و لا يجوز اتباعه، إلا أنه لم يحفل بثورتهم عليه. لأنه كان على ثقة من أن هذه العادة التي تصدى لإبطالها ليست من الدين و ليست من العقل، و لا من الأخلاق الإنسانية.

كان ينكر أصلا أن إحراق الأرملة على جثة زوجها قد أمر به الدين البرهمي في كتاب من كتبه المعول عليها. و كان يقول أنه لو صح أن إحراق الأرملة على جثة زوجها واجب لاتصال روحيهما، لوجب مثله إحراق الزوج على جثة امرأته المتوفاة، و أن إحراق إنسان حي لا يحيي أحدا، بل يزيد في عداد الأموات.

و كان يقول إن الرهبانية المقصودة هي رهبانية من يغالب غواية الجنس و يقوى على مغالبتها، فلا رهبانية للطفل و للطفلة قبل بلوغهما مبلغ الرجال و النساء.

أما الزواج عامة، فهو فيه وسط بين المنع و الإباحة. فلا ضير من العلاقة الزوجية و لا موجب للخجل منها، و لكن بمسوغ واحد: و هو طلب النسل، لا طلب المتعة الجسدية.

أما الموكشا أو انطلاق الروح من جميع الشهوات الجنسية، فهو الكمال الذي يتوخاه من يطيقه، و لكنه لا يفرض على جميع الناس.

و كان غاندي يشجع كل حركة تساعد المرأة على الاستقلال و الكرامة. و هكذا كان في مسألة "حق الملكية" فإنها كانت مثار خلاف بين الهنود عند البحث في تقرير حقوق النساء المدنية و السياسية. فكان الأكثرون منهم يتوجسون من إباحة حق الملكية للمرأة، لأنه يغريها بالنشوز و قلة الاكتراث لمرضاة زوجها عنها. و كان غاندي على خلاف هذا الرأي يبيح الملكية للمرأة كما يبيحها للرجل.

على أنه لم يكن يستحسن للمرأة أن تتعلم لتعمل في كسب المعيشة و تتمرس بأعباء التجارة و مغامرات السوق، و يؤثر لها العمل في البيت على كل عمل في معترك الحياة.

و قد واجهته مشكلة النسوة الشقيات اللواتي احترفن البغاء بمعضلة مضنية. فكان يواسي من يلقاهن منهن و يدعوهن بالأخوات، و كان يدبر لهن وسائل الاشتغال بصناعة النسيج، و يوصي القائمين بمقاطعة البضائع الإنجليزية بتفضيل منسوجاتهن لإغنائهن عن التبذل في سبيل كسب العيش، و إحياء كرامتهن بالمساهمة في هذه الحركة القومية، و رحض عار الدنس و المهانة عن نفوسهن.

الباب الثالث

محمد علي جناح في ضوء "القائد الأعظم" للعقاد

و فيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: خلفية الكتاب "القائد الأعظم"

إن الكتابة عن العبقرية و البطولة أو العباقرة و الأبطال خط واضح في أدب العقاد، فقد تناول في سلسلة عبقرياته الشخصيات الإسلامية العظيمة التي لها دور عظيم في نشر رسالة الإسلام و تبليغ تعاليم القرآن، و التي قد غيرت مجرى التاريخ بأخلاقها الكريمة و آثارها الجليلة، و قدمت للإنسانية أسوة حسنة للحياة و أوضحت ما أودعت الفطرة في سلالة بني آدم من العظمة و الكرامة.

و قد تناول العقاد في دراساته رجال الأدب و الشعر من الذين لهم شأن كبير في آثار الأدب و تراث اللغة و الذين قدموا للعالم أدبا مثاليا و تركوا خلفهم نماذج أدبية يتبعها الفنانون في مجال الشعر و الأدب، و قدموا من خلال أعمالهم الأدبية آثارا فنية تبين من معالم العظمة الإنسانية.

و كذلك كتب العقاد عن قادة الأمم و أبطال الثورة و رجال السياسة و عباقرة الحركات الوطنية الذين صنعوا التاريخ و غيروا المجرى التي كان يجري عليه التاريخ.

و لم يفرق العقاد في دراساته عن الأبطال بين الشرق و الغرب، و لم يمنعه عن الكتابة حول سيرة النوابغ و العمالقة ديانتهم أو جنسيتهم، بل كفى له للكتابة عن العباقرة أن يكون فيهم من علامات العبقرية و معالم العظمة الإنسانية.[1]

و لذلك قدر الدارسون لدراسات العقاد و مؤلفاته تقديرا حسنا، و ترجموا كتاباته إلى اللغات الأجنبية، و لنفس السبب أطلق عليه النقاد "محامي العباقرة".[2]

و قد تجاوز بعض النقاد و الدارسين فاتهموه بإنه كتب للسوق. فقد كتب محمد بن جلال القصاص يقول:

"ما هو إلا أن الأمريكان أرادوا تسويق بضاعتهم، فبحثوا عن قلم مشهور، فكان العقاد استكتبوه، و قدموا للكتاب و قاموا بطباعته، و من ثم نشره."[3]

و كتب هذا الكاتب محمد بن جلال القصاص في إثبات هذه التهمة في مكان آخر، فقال:

"فرضية أن العقاد كتب للسوق يدعمها كتابه عن "بنيامن فرنكلين" مؤسس أمريكا، فما جاء بجديد... يقول فيه ما يقوله في غيره: سياسي منفرد، و عالم قد علم، و

[1] أدباء و مواقف، رجاء نقاش، ص:14

[2] أدبا و مواقف، رجاء نقاش، ص: 9

[3] عباس محمود العقاد و العمالة للغرب، محمد بن جلال القصاص، ص: 16

فيلسوف متكلم، و أديب قد كتب، و مفاوض قد أخذ من خصمه بحنكته، و رحيم بالعبيد، و مؤدب للأغنياء."[4]

و تعرض العقاد لنفس الشك و الاتهام عندما كتب القائد الأعظم محمد علي جناح، و قد ذكر العقاد هذا في مقدمة كتابه عن قائد الباكستان الوطني، كما بين أيضا السبب الحقيقي لكتابه هذا.

يبدأ العقاد مقدمة "القائد الأعظم" بقوله:

"كتبت عن القائد الأعظم كلمة تقدير يوم سمعت بنعيه منذ ثلاث سنوات، اعتمدت فيها على المعلومات المتفرقة التي تناثرت إلينا من أخبار الصحافة و الإذاعة، و كلها نتف قصيرة لا تجتمع منها سيرة وافية تكفي للتعريف بالرجل العظيم. و لكن هذه المعلومات كانت كافية للتنويه بعظمة الرجل، و إن لم تكن كافية لتأليف كتاب في سيرته، و قد كان تأليف كتاب عن جناح من الموضوعات التي أعقد النية عليها."[5]

ثم يجري العقاد في توجيه تأليفه عن جناح، و يقول:

"و قد كان محمد علي جناح وفاق شرط العظمة عندي بين زعماء الأمم و دعاة الأمم المغلوبة إلى الاستقلال. و شرط العظمة عندي في هؤلاء الزعماء: همة الجبابرة من

[4] عباس محمود العقاد و العمالة للغرب، محمد بن جلال القصاص، ص: 16

[5] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 7

رجال العمل، و طموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة .. و هما خصلتان لا تخفيان من أقل الأخبار التي تروى عن جناح في إبان جهاده، فإنه رجل تصدى بهمته العالية لتحقيق فكرة مثالية، سمع بها "الخبراء" فأجمعوا ـ أو ـ كادوا يجمعون ـ على أنها مستحيلة، و إن جناحا يتخبط في الظلام وراء خيال لا يطلع عليه النور.

و طلع النور على الخيال، فإذا هو خيال ثابت كالجبال.

كان جناح وفاق شرط العظمة بهذا و بما يزيد عليه، و هو الخلق المكين الذي يقاوم كل إغراء و لا يتخاذل أمام الوعيد."[6]

و قد أجاب عما وجه إليه بعض الدارسين من اعتراض على تأليفه عن القائد الأعظم حيث يقول:

"قال لي بعض أصحابي حين علموا أنني أكتب كتابا عن جناح: "لا جرم و قد كتبت عن غاندي ألا تفوتك الكتابة عن جناح!"

خاطر طبيعي لا غرابة في سبقه إلى الأذهان، لأن السبب الذي تخيلوه للكتابة عن محمد علي جناح سبب وجيه، فمن حق الباكستان علينا أن لا نسكت عن زعيمها و قد أعطينا الهند حقها في زعيمها، و مقام القائد الأعظم في الشرق قرين لمقام المهاتما

[6] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 7-8

الذي سميناه بالروح العظيم، على أن هذا السبب الوجيه لم يكن هو في الواقع سبب تأليف الكتاب.

لأنني ـ أولاـ لم أولف كتابي عن غاندي رعاية لدولة الهند و لا لمرجع من مراجع السياسة، ففي الكتاب ما لا يوافق الهند و لا يوافق الباكستان.

إنما ألفت الكتاب عن غاندي بحقه الشخصي أو بحق عظمته، و مغزى هذه العظمة في تاريخ الإنسان .. و كتبت عن جناح كذلك بحقه الشخصي و حق عظمته و مغزاها الخالد في تاريخ الإنسان. فالكتابة عن القائد الأعظم واجبة لأنها تجلو للإنسان، و للشرقيين خاصة، صورة من صور العظمة الإنسانية.

و هي عدا هذا واجبة لدلالتها في تفسير أطوار الأمم و أسرار التاريخ، و الزاد الذي يتزوده الدارسون من سيرة جناح في هذا الباب أوفر من زادهم في سير عشرة من العظماء.

و هذا الذي عنينا به عناية خاصة في وصف عظمة الرجل و وصف العظات التي يخرج بها نقاد التاريخ من نشأة الباكستان."[7]

[7] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص:9-10

و هكذا برر العقاد تأليفه "القائد الأعظم محمد علي جناح" و اعتمد في كتابته على الكتب التي تناولت سياسة الهند و الباكستان، و جهاد أبنائهما ضد الاستعمار من تأليفات الشرقيين و الغربيين. و في هذا يقول العقاد في نفس المقدمة:

"و التمست المراجع الوافية عنه، فلم أجدها، ثم تتابعت هذه المراجع سنة بعد سنة، و اطلعت منها على الكتب و على الفصول، و منها ما كتبه أبناء الباكستان، و ما كتبه المنصفون من الغربيين في عرض الكلام على السياسة الشرقية، و منها ما كتبه من أبناء الغرب و الشرق أناس غير منصفين، و لكنهم يروون على الرغم منهم أخبار الرجل فتعليه و تزكيه من حيث يريدون انتقاصة و القدح فيه، و رب واقعة يسوقها العدو، فيسجل بها شهادة لا تتهم، لأنها تكشف عن مواطن للثناء لا يقصدها الأعداء.

و تجمعت المراجع التي تكفي لتأليف كتاب عن القائد الأعظم فألفت هذا الكتاب."[8]

و هذا يبين بصراحة ما أردت بيانه في خلفية هذا الكتاب، و قد أخذت المقتبسات جميعها من المقدمة التي ختمها العقاد بقوله:

"و بين يدي القارئ صورة من العظمة الإنسانية و درس لا نظير له في فلسفة التاريخ، أو فيما نسميه العوامل التي نتطلع إليها من وراء حركات التاريخ."[9]

[8] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 8

[9] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 10

الفصل الثاني: محمد علي جناح كما وصفه العقاد في كتابه

أسرته: ولد محمد علي جناح في أسرة من أصل برهمي. قد أسلم أحد أجداده منذ قرنين متحولا من البرهمية إلى النحلة الاسماعيلية (و هي نحلة لها دعاة عاملون ذوو نشاط و ذكاء عملوا في الهند الغربية و على حدودها منذ ألف سنة. و كان من دعاتهم في تلك البقاع قبل ألف سنة والد الفيلسوف ابن سينا كما هو معلوم.)[1]

و كأنما شاءت الأقدار أن يكون جناح بتاريخه و تاريخ أسرته حجة قائمة على الحقيقة العظمى في تكوين النفس الهندية. و هي أن الدين قد شغل في هذه النفس مكان كل عاطفة عامة: شغل فيها مكان الوطنية و العصبية و الجامعة القومية، و صبغ فيها الأفكار و الأذواق والآداب العملية و النظرية بصبغته، فهو طبيعة أخرى كالطبيعة التي تركبها الفطرة في بنية الجسم و الضمير.

اختلفت العقيدة في أسرة جناح منذ ثلاثة أجيال، و عاشت هذه الأجيال الثلاثه بعقيدة جديدة بينها و بين الله، و بينها و بين الناس: تغيرت نظرتها إلى الدنيا و ما وراءها، و تغيرت عاداتها في الطعام و الكساء و مقاييسها للأعمال و الأخلاق، و جاء العرف

[1] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص:

الذي لا يقصد ما يصنع، و لكنه يصنع ما ليس يصنعه الذين يطيلون القصد و الإرادة و الرؤية، فإذا بزعيم المسلمين يسمى القائد الأعظم، و إذا بزعيم البراهمة يسمى المهاتما... و لا فارق أصدق و لا أعمق و لا أدق من الفارق بين الزعيمين و بين الأمتين و بين الثقافتين في عقلية الواحد و عقلية الجماعة.[2]

و كأنما شاءت الأقدارمن جانب آخر أن يكون جناح بنحلته الدينية صالحا للمهمة السياسية التي تصدى لها و قادته حوادث زمانه إليها، فإن القدرة على التنظيم و توجيه الحركات السياسية قديمة في الاسماعيلين و سماحتهم في الإحاطة بالجمهرة العامة و النخبة المختارة معا قد أصبحت تقليدا من تقاليدهم التاريخية، و قد بلغت هذه السماحة غايتها في عصر الجامعة الإسلامية و الحرية الفكرية. و بلغت غاية غاياتها في جناح نفس، فقد كان يلغي كل تسمية طائفية تطلق على المعاهد العامة، و قد غير أسماء بعض المعاهد لأنها تشير إلى فروق بين نحلة و نحلة من النحل الإسلامية. و جاء انتماءه إلى الاسماعيليين النزاريين ـ مع هذه السماحة التي تسع الناس جميعا ـ مرجحا قويا لزعامته و مزيلا للخوف من كثرة الطائفة و انتشارها.[3]

طفولته: نشأ جناح في أسرة برهمية أسلمت حديثا منذ ثلاثة أجيال، و انتقل جده بعد فتنة سنة 1857م بخمس سنوات إلى بومبائ ثم كراتشي، و كان ابوه بونجا جنه ثاني

[2] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 87

[3] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 87-88

أبناء أبيه يعمل في شركتهم التجارية واحدا من مديريها الذين يشتركون في إدارتها لاتساع نطاقها و رواج أعمالها، و كان معظم أعمالها في تصدير الجلود و ملحقاتها ثم لحق بها الكساد من جراء القلاقل السياسية و الأزمات الاقتصادية قبل أن يتم جناح تعليمه في انجلترا حوالي سنة 1897م.[4]

و محمد علي هو الولد الثاني لأبيه، ولد في الخامس و العشرين من شهر ديسمبر سنة 1876م. و تعلم دروسه الأولى في مكتب من مكاتب التعليم بكراتشي، ثم انتقل إلى بومبائ لإتمام تعليمه في مدرستها الابتدائية، و تدرج منها إلى مدرستها العالية التابعة للجماعة الإسلامية، ثم عاد إلى كراتشي لينتظم في مدرسة السند العليا، و حصل على الإجازة التي ترشحه للتعليم الجامعي من معهد البعثة الكنسية المسيحية سنة 1896م و هو في السادسة عشرة من عمره.

و الأخبار المحفوظة عن الطفل محمد علي جد قليلة، و لا يروى عن أيامه في المدارس الأولية و الثانوية غير النزر اليسير، و لكنه على نزراته يدل على طفولة نجيبة مجتهدة، و على ذكاء ألمعي يلفت النظر و يوحي إلى أصدقاء أبيه من الطبقة الحاكمة أنه أهل للتفوق في التعليم العالي و أن مدارس الهند في ذلك الزمن لا تكفي لتثقيف ملكاته و استيفاء تعليمه، فقد كان أبوه يعده للعمل التجاري و يقنع بنصيب الشاب الهندي من العلم في المدرسة الثانوية ثم تدريبه بعد ذلك على مصاحبته في

[4] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 88

التجارة إلى أن يستقل برأس مال يغنيه أو يشاركه في إدارة تجارته الواسعة، و لكن صديقه السير فردريك جرافت لمح في الصبي الناشئ مخايل ذكاء نادر يرشحه للمراكز العليا فنصح لأبيه غير مرة أن يرسله إلى احدى الجامعات الأمريكية، و اختار له دراسة الحقوق و العلوم الإدارية، لأنها هي " المعرفة" اللازمة لمناصب الرئاسة في الحكومة.[5]

زواجه: صرفته الحياة العامة عن الزواج حتى بلغ الأربعين، فلما تزوج في تلك السن كانت لزواجه قصة "جناحية" تطابق ديدنه المطرد في حياته العامة. فإن سفير الوحدة قد تزوج من فتاة زردشتية، و أبت الأقدار إلا أن يكون زواجه آية أخرى من آيات هذه السفارة التي صمد عليها ما استطاع .

كان جناح رجلا وسيما و ظل شيخا وسيما معتدل القامة إلى أن توفى و هو يجاوز السبعين.

كان علما بارزا في جلسات المؤتمر و العصبة التي انعقدت في سنة 1916م، و كان يقود العصبة و يقود المؤتمر و يدير الحوار و يرد على كل سؤال و يخرج من كل معركة حامية بالحجة الناصعة و الرأي المسموع، و كان السير "دنشا بتيت" أغنى أغنياء الفرس في بومباي يشهد الجلسات و معه فتاته الذكية و الحسناء رتن بتيت،

[5] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 89

فأعجبها الرجل الوسيم و أعجبها الخطيب المبين، و هامت به و فاتحته بحبها و سمحت لها تربيتها الأوربية أن تعرض عليه الزواج و هي دون العشرين.

و فوجئ جناح باقتراحها و راجعها في الأمر و بصرها بالعواقب التي تترقبها عاجلا و آجلا من جراء هذا الزواج مع اختلاف الدين و تفاوت السن و محظورات التقاليد، فزادتها المراجعة اصرارا و قالت له انها لا تجهل هذه العواقب و أولها الحرمان من مال أبيها و الحرمان بعد ذلك من الميراث، فلما آمن أن يقال إنه قبل زواجها لمالها و أعلمها أنه يتوقع ما توقعته من حرمانها، قابلت هي هذا النبل من الرجل الذي أحبته بإعلان إسلامها، فنشرت الصحف أنباء عقد الزواج و إسلام الفتاة في وقت واحد، و قامت القيامة عليهما و ثبت لها الزوجان في غير مبالاة.

ساقهما أهلها المقتدرون إلى القضاء، و ودوا لو يدعون قصورها لولا أن سنها بشهادة الميلاد تخولها أن تختار زوجها بإرادتها.

و لما أراد القضاء أن يحرجه لينفض يده من هذا القران المغضوب عليه، و اتهمه على ملأ من شهود الجلسة بأنه يجري وراء الفتاة الغنية طمعا في مالها، لم يشأ أن يجيب و ترك لها الجواب، فقالت للقاضي مغضبة إنه لم يجر وراءها ولم يجر وراء

مالها و ارتضى أن يبني بها و هو يعلم أنها ستحرم من ثروة أهلها، و هي تعلن في ساحة القضاء وفاقا لما أراد أنها قد استغنت عن معونة أهلها كل الاستغناء.[6]

وتعليقا على هذه القصة يقول العقاد بعد فراغه من نقلها:

"و من الأخبار القليلة التي وردت متفرقة في سيرة القائد الأعظم نعلم ان هذه الزوجة النبيلة كانت جديرة بزوجها في أنبل مناقبه و هو الشجاعة و الاستقلال بالرائ والكرامة، فهان عليها أن تنبذ الملايين في سبيل الرجل الذي أحبته، و هان عليها أن تكبت حياءها و هي تبرئه من اغوائها و تجهر في ملأ من شهود الجلسة أنها هي التي عرضت نفسها عليه."[7]

موت زوجته: سعد الزوجان على غير الشائع عن زواج الحب أو زواج التفاوت بين الزوجين في السن و العقيدة و النشأة الاجتماعية، و رزقا بنتا سمياها "فينا". ثم نكب البيت السعيد بموت ربته و هي دون الثلاثين، و حار جناح في تربية الطفلة الصغيرة فأبقاها عند جدتها لأمها فادخرت له الصروف فيها نكبة نكأت جرحه الذي لم يندمل بعد نكبته في أمها، فإنها نمت في بيئة زردشتية فتزوجت من أحد أبناء ملتها على الرغم من تحذير أبيها، و انقطعت الصلة بينه و بين الفتاة بقية حياته.

[6] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 153-155

[7] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 155

و قد أوغلت النكبة في قلب الرجل العظيم إيغالا أوشك أن يكون مميتا، و لكنه لم يسمع شاكيا و لا متضجرا و لم يشاهد واجما و لا متوانيا في مهمته القومية، و كل ما تغير منه بعد النكبة أنه أفرط في التدخين و إنه راح يغرق آلامه في متاعبه السياسية و مساعيه القومية، فاتخذ من النكبة القاصمة مصلحة له و لقضية بلاده، و خلق من المزن دافعا يضاعف القوة و أبى عليه أن ينقل همته فيضعفه و يفت في عضده.[8]

و تعليقا على هذه النكبة و أثرها على ذهن القائد الاعظم و سياسته القومية يقول العقاد:

"و من المصادفات التي قل أن تتوارد في حياة زعيم كما تواردت في حياة جناح أن الوقت الذي ودع فيه برنامج الوحدة هو الوقت الذي انتهت فية آية الوحدة في بيته و أسرته. فلم تكن سياسته بعد سنة 1929م التي توفيت فيها زوجته إلا تباعدا مستمرا عن فكرة الوحدة و اقترابا مستمرا من برنامج التقسيم و الفصل بين الدولتين، و قد عن لبعضهم ان الحادثين مرتبطان – حادث الأسرة و حادث السياسة الهندية – و لو لم تكن الحوادث السياسية في إنجلترا و في الهند و في العالم كافية لتفسير برنامج الانقسام لأمكن القول بأن انقضاء الزواج بين الزعيم المسلم و الفتاة الزردشتية كان له شان في التعجيل إن لم يكن في التعديل و التحويل، و لكن الخوالج النفسية التي تتعاور النفس في أمثال هذه الأحوال عودتنا ان تكون الذكرى بعد الموت أقوى من

[8] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 156-157

العلاقة الحية، فلو قيل إن ذكرى القرينة المحبوبة كانت هي الآصرة المتجددة بينه و بين السلالات الأخرى بعد موتها لكان هذا أحرى بالقبول من القول عن أثر الوفاة في تفاقم سياسة الانفصال، فضلا عن أن الزوجة كانت مسلمة و عاشت مع قرينها مسلمة لا تثنيه عن شيء في أعماله السياسية."[9]

مفتاح شخصيته: من عادة العقاد ان أنه عندما يفكر في العبقري أو يكتب عنه، إنما يبحث دائما عن جوهر العبقري، عن مفتاح شخصيته، عن النقطة الأساسية التي يدور حولها وجوده كله، فشخصية عمر مثلا، في "عبقرية عمر"، تدور كلها حول مفتاح واحد هو الإعجاب بالبطولة. و كل فضائل عمر تنبع من هذه الفكرة الرئيسة، و كل جوانب سلوكه تظهر في ضوء هذا المصباح الكبير.

و كذلك حينما كتب عن جناح، إنه بحث عن جوهر شخصيته و النقطة الأساسية في حياته التي يدور حولها وجوده كله، و تنبع عنها جميع نواحي تعامله الشخصية الخاصة و الحياة العملية السياسية، و بدأ كتابته عنه بذلك المفتاح و هو الصدق و الصراحة. يقول العقاد تحت عنوان "نادر المثال":

"قرأت أكثر من مائتي بيان للقائد الأعظم زعيم الباكستان محمد علي جناح .. منها الخطب في المحافل، و الرسائل إلى الاصدقاء و الخصوم، و التصريحات في الصحف و المناقشات و المساجلات: ما هو مكتوب منها و ما هو ملفوظ مرتجل،

[9] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 157-158

فخرجت منها بعقيدة راسخة عن عظمة هذا الرجل. إن القائد الأعظم ولا شك رجل عظيم نادر المثال بين عظماء الرجال.

لم أتبين هذه العظمة من بلاغة أسلوبه، فإن الزعماء الذين هم أبلغ منه كثير .. و لم أتبينها من سعة معلوماته، فإن سعة المعلومات و العظمة لا تتلازمان في جمع الأحيان .. و لم أتبينها من قوة العقل، فقد يكون العقل قويا و صاحبه غير عظيم، بل قد يكون العقل قويا في الشر وال إذاى فلا يحسب صاحبه من عظماء الأمم ولا من عظماء الإنسانية ..

لكنني تبينتها من خصلة نادرة جدا في قادة الشعوب، و هي "الصدق الصريح في جمع الأقوال و جميع الأحوال."[10]

فمن المألوف في قادة الشعوب أن تكثر في أقوالهم الوعود الطنانة و الكلمات البراقة، و أن يكون خطابهم للجماهير كالتنويم الذي يسوقها إلى الطريق التي يهواها الخطيب.

و يتفق كثيرا أن يكون الزعيم مخلصا غيورا على مصلحة قومه و هو يتصرف بتلك الاساليب .. و لكنه يخاطب الناس بما تعودوه ولا يبالي أن يقنعهم بالوسيلة التي يرضاها ما دام إقناعهم للخير و الفلاح، و ما دامت قيادتهم لا تتأتى بغير هذه الوسيلة.

[10] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 12

و كان جناح أيضا قائدا من قادة الشعوب و زعيما من زعماء الأمة، و لكنه لم يستخدم الوسيلة التي تسوقها سياق عامة الزعماء، و هذا مما يزيد عظمته من حيث الفرد و من حيث القائد. يقول العقاد:

"و لو أنني وجدت في كلمات القائد الأعظم مسحة من هذه الألوان الخطابية لما أصغرته من أجلها و لا اتهمته في إخلاصه و صدق دعوته، و لكنني أكبره لا محالة إذاا خلا كلامه منها و بلغ مع هذا غايته و غاية قومه على أقوم منهاج."[11]

إن القائد الأعظم، كما يصرح العقاد، تحدث بهذه الأقوال أو كتبها خلال أربعين سنة من عنفوان صباه إلى أن علت به السن و جاوز السبعين، فلم تختلف في واحدة منها تلك المزية التي تكبره و ترفعه للناس مثلا بين زعماء السياسة و قادة الشعوب .. و هي مزية الصدق الصريح، بل مزية الصدق البسيط الواضح الذي لا يشبه مرة واحدة بتزويق أو تنميق. و يؤكد العقاد هذا بقوله:

"كل ما قرأته له من تلك البيانات التي جاوزت المائتين صالح لأن يقال أمام هيئة علمية محققة، أو أمام هيئة قضائية بعد حلف اليمين. وعد في حدود الإمكان و النفاذ، و صدق تتساوى فيه الرؤية و الارتجال، و خطاب للجماهير يصارحهم فيه بعيوبهم

[11] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 14-15

أحيانا و لا يتملقهم حينا واحدا بقول لا يقوله بينه و بين نفسه على انفراد. إن هذا الرجل عجيب .. إن هذا الرجل عظيم .."[12]

صراحته في خطابه للطلبة: كان الزعماء جميعا يخطبون ود الطلبة الذين يتعلمون في البلاد الإنجليزية، و يعلمون أنهم عماد المستقبل، و أن من يكسبهم في حاضرهم يكسب الجيل المقبل في السياسة و في القيادة الشعبية، و لكنه كان يؤمن بأن الطالب يحق له الاهتمام بأمراض قومه، و لكنه لا يحق له أن يتصدى لمعالجتها، و لما دعى لمخاطبتهم في سية 1913م قال لهم بكل صراحته التي هي مزية رئيسية من مزايا القائد الأعظم و كان يومئذ في مقتبل حياته السياسية:

"إن موقف الطلبة في هذا البلد فرد بغير نظير، لأنهم نموذج مختارة من صفوة أبناء الأمة الهندية و خيرة من تستطيع إخراجهم و تربيتهم، إنهم هنا الأمناء على سمعة بلادهم و يسوءني أن أقول أنهم في الوقت الحاضر من حيث العلاقة بالمجتمع البريطاني لا يظفرون بسمعة حسنة و لا بسيرة طيبة، فهم بدلا من سلوك مسلك الطلبة في التعلم و الانتفاع بأفضل ما في الحضارة البريطانية التي لم يكسبها القوم إلا بعد رياضة العصور المتعاقبة – يغفلون هذا الواجب و يقصرون حياتهم العامة على التراشق بالعبارات النابية في خصومات السياسة. دعوني أذكركم أنكم لم تدركوا بعد مرتبة الكفاية لتناول المسائل السياسية التي تتمثل في بلادكم، و ما من أحد يقدر

[12] المرجع السابق

غيرتكم فوق قدري لها و يفهم الأسباب التي حملتكم على ما تصنعون خيرا مما أفهمها، و لكن الوقت قد حان لإعادة النظر في موقفكم بعين الجد و السداد."[13]

و لا يزال العقاد قائما على موقفه من الطلبة و لا يتغير صدقه و صراحته حينما يخاطب الطلاب من كلية عليجراه الهندية و قد مضى أربعون سنة على ذلك الخطاب في إنجلترا فقال:

"اجتهدوا أولا في رياضة أنفسكم على الشعور بالتبعة و الواجب، و ليكن همكم بناء أخلاقكم فهو خير من الشهادات و الإجازات. إن العناء في تحصيل الشهادات و الإجازات بغير خلق ضائع، و عليكم أن تربوا في أنفسكم روح الكرامة و الاستقامة و القيام بما هو مفروض عليكم، و ما نحن دون غيرنا من الأمم مقدار ذرة، و إنما كانت آفتنا من إهمالنا لهذه الصفات و نحن قادرون عليها. و صدقوني عن يقين إن الباكستان لكم خالصة يوم تتمكن هذه الصفات منكم."[14]

و هكذا كان القائد الأعظم صريحا في رأيه في أمور السياسة. و خير شاهد على ذلك أنه كان يزور كولكاته في شهر مارس (سنة 1946م) داعيا للعصبة الإسلامية فوجه إليه وفد من العمال بعض الاعتراضات على تكوين العصبة و قال له أحدهم: "يقول

[13] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص:15-16

[14] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 16-17

الناس إن العصبة الإسلامية طائفة من الأغنياء لا محل بينها للفقراء." فأجابه القائد الأعظم قائلا في صراحته التي لا التواء فيها:

"من هم أولئك القائمون بالعصبة؟ إنهم ليسوا أغنياء. و دستور العصبة، بعد، دستور ديمقراطي، فإن كان في العصبة أغنياء طماعون فهم هناك لضعفكم أنتم و تهاونكم، لأنكم لا تختبرون قائدكم قبل اتباعه، و ما للزعماء من قوة غير التي يستمدونها من الشعب و من الفقراء، فعليكم قبل أن تسلموهم زمام القوة ان تختبروهم فمن وجدتموه غير أهل للأمانة فانبذوه."[15]

صراحته في معارضة الجماهير: اتفق مرة أن هيئة المؤتمر و هيئة العصبة الإسلامية معا اجتمعتا على سياسة واحدة في مسألة الخلافة، و لم يكن جناح على رأيهم في الخطة التي أجمعوا عليها، فوقف وحده يعارض المؤتمر و العصبة و من ورائهما الجموع الثائرة ... و كان في الاجتماع نحو خمسة عشر ألفا يتلهبون حماسة و يصفقون للمقترحات المعروضة عليهم تصفيق المأخوذين بنشوة عارمة لا يقف في طريقها معترض يبالي بشهرته، بل بحياته، إلا هذا الرجل الفذ العجيب، فإنه لم يوافق و لم يسكت، ووقف وحده ينقد آراء الخطباء و حماسة المجتمعين. و كان في الهند

[15] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 17

يومئذ مستر ودجوود مندوب حزب العمال، فكتب يقول: "إن الهند ماضية في طريق الحرية، لأن فيها رجلا يستطيع أن يثبت على رأيه في وجه الجموع المخالفة!"[16]

و قد أبت صراحته في كل موقف أن يجامل الهيجة الغالبة في وقت من الأوقات و ان هانت فيه ظواهر المجاملة. فماذا عليه مثلا لو لبس كساء الزي الشائع الذي اصطلح عليه جماعة المغزل من البراهمة و المسلمين اقتداء بالمهاتما المبشر بذلك الكساء؟ لقد كان في اجتماع ناغفور نحو خمسة عشر ألفا يلبسون "الخادي" و لكنه هو وحده حضر الاجتماع بملابسه المعتادة لأنه لم يكن يؤمن بحركة المغزل، فلا يبيح له ضميره أن يلبس "الخادي" ساعة أو سويعات و هو لا يرى في حركة المغزل حلا للقضية الهندية.

و الذين خبروا الرجل من قريب يشهدون له بهذه الصراحة المستقيمة التي تشهد بها أقواله و أفعاله، و منهم إنجليز و برهميون، و منهم مسلمون يخاصمونه ولا يقرون سياسته، و منهم من اتهم غاندي في صراحته و لم يخطر له قط أن يتهم صراحة جناح. قال بيفرلي نيكولاس: "إن الفرق بين جناح و السياسي الهندي هو الفرق بين الجراح و الساحر." و قال الديوان شمان لال: "إنه أحد الرجال القلائل الذي لا يخدم مأربا شخصيا و لا يرمي إلى غاية نفعية. إن نزاهته فوق الشبهات."[17]

[16] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 18

[17] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 19-20

هذه عديدة من شواهد الصدق و الصراحة التي ذكرها العقاد في الكتاب نقلا من خطب و بيانات صحفية أو مؤلفات قرأها العقاد، و خرج منها برأيه السديد الذي يتجلى في العبارة التالية:

"قرأت ما قرأت للرجل، و قرأت ما قرأت عنه، فلم أجد ظلا واحدا يخلط ذلك النهار الواضح من صدقة و استقامته في تعبيره: سياسي لا يبطن غير ما يظهر، ولا يعني القليل و هو يجهر بطلب الكثير، ولا يدخر للصفقة الاخيرة مساومة لم يكشفها من الصفقة الأولى، و هو يقود أتباعه بغير خداع ولا تهويل و لا تهوين و لا تنويم، فكيف أفلح في مسعاه و قد أفلح فيه حقا غاية ما يستطاع من الفلاح؟

لابد من سر في الرجل، أو لابد من سر في القضية التي تجرد لها، و لعل السر في الرجل و القضية معا و هو الذي قدرناه و لمسنا شواهده و لم نزل نلمسها كلما اطلعنا على جديد في سيرة جناح و سيرة الباكستان."[18]

الثقة: الصفات التي لابد منها لنجاح الزعماء كثيرة تتنوع على حسب القضايا التي يخدمونها، و على حسب الوسائل التي تلائم كل قضية في أوانها.

و قد تتناقض هذه الصفات حتى يصبح النافع منها في قضية أخرى حتى يكون منها ما هو قرين للخذلان إذا اختلفت الوسائل و البيئات.

[18] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 20

و لكن صفة واحدة من صفات النجاح لا غنى عنها في جميع الزعماء، و في جميع القضايا، و في جميع الأوقات، و مع جميع الوسائل، و على جميع الفروض. تلك هي الثقة! ثقة الزعيم بنفسه، و ثقة الناس به، و بغير هذه الثقة في نفس الزعيم و في نفوس الناس لا تنجح قضية من القضايا الكبرى، إلا أن يكون النجاح مصادفة لا محل فيها للتدبير و لا للتقدير.

ثقة الزعيم بنفسه لازمة، لأن فاقد الشيء لا يعطيه و ثقة الناس بالزعيم لازمة، و إلا لم يسلموه حاضرهم و مستقبلهم، و لم يضعوا بين يديه مصالحهم و آمالهم، و كثيرا ما تكون الآمال أعز على أصحابها من المصالح، و كثيرا ما يبذل الناس المصلحة المضمونة و يضنون بالأمل المحفوف بالشكوك و المخاوف، بل تكون الشكوك و المخاوف أدعى إلى الضن به و الحرص عليه و البحث عن الزعيم الذي يمحص لهم الأمل فيخليه من الشك و الخوف.

لابد من ثقة بالنفس في الزعيم .. ولا بد من ثقة بالزعيم في نفوس أنصاره و مؤيديه .. و قد كانت الثقة بعنصريها صفة من صفات القائد الأعظم المفروغ منها، الغنية بنفسها عن براهينها و قرائنها.

الثقة بنفسه: كانت ثقة جناح بنفسه جزاء من نفسه، و قوة لا فكاك لها من طبائعه و عاداته. و كانت فيه كل لوازم هذه الصفة على أتمها: كرامة، و استقلال بالرأي، و عزيمة لا تنثني عما يريد.

حدث مرة أن يمثل جناح في قضية مهمة أمام رئيس محكمة إنجليزي اشتهر بالغطرسة و الولع بالتبكيت و الغضب في موجب و غير موجب، فقال الرئيس يقاطع جناح في مرافعته: و لم يكن خاشعا في هذه المرافعة كما تعود الرئيس المتغطرس من المحامين "الوطنيين" أن يخشعوا في حضرته أمام هيبته:

"أتراك تحسب أنك تتكلم هنا أمام قاض من قضاة الدرجة الثالثة؟"

و في مثل رجع الصدى كان الجواب يعود إلى الرئيس المتغطرس بالرد المفحم، و لم يفرغ القاضي من كلمته حتى كان جناح يفوه برده كأنه كان يتوقع عبارة القاضي بنصها، و يقابلها بجوابها الذي يعادلها. رفع جناح رأسه و أثار إلى القاضي بصره، و قال في لهجة صارمة:

"و هل الذي أمامك أيها القاضي محام من الدرجة الثالثة تخاطبه بمثل هذا الكلام!"[19]

و قد تعود الناس من الزعماء أن يتملقوا الجماهير و هم يترفعون عن تمليق الملوك و رؤساء الحكومات. و لكن القاعدة هنا لا شذوذ فيها، فلا تمليق للجماهير و لا متابعة لها في غرورها و لا احتيال على مرضاتها في غير ما يرضى الحق و المصلحة القومية، و يشهد بذلك خصومه ألذين يخلقون المثالب إن لم يجدوها و يهمهم أن

[19] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 111

يصموه بوصمة الشعوذة السياسية أو الاجتماعية لو عرفوا سبيلا إلى وصمة يلصقونها به من هذا القبيل.

و في هذا ينقل العقاد ما قال "ألان كامبل جونسون" في كتابه عن مهمة اللورد مونتباتن في القضية الهندية، و كان مؤلف الكتاب من مديرى مكتبه من أقرب الناس صلة بزعماء الهند و رؤساء الحكومات فيها:

"كان غاندي مطبوعا على غريزة مدهشة تلهمه بث الأفكار بين الجماهير تعززها اجتماعاته بهم مباشرة في مجامع الصلوات التي يشجعها كما تعززها مخالطته الواسعة للناس في جميع مناحي الحياة. أما جناح فهو على خلاف ذلك يستمد نفوذه من القيادة على بعد، فهو لايتزلف للجماهير و لا يكثر من مخالطتها، و قد مزج بين التدبير المرن المصقول في حزم و دقة و بين القدرة على الانتفاع من أغلاط خصومه بإرادة من حديد و نفاذ إلى الغاية الموحدة التي لا ينحرف عنها، و أنه لظاهرة فذة في القضايا الكبرى: نادى بالباكستان و هو في الستين و حققها و هو في السبعين."[20]

و تعليقا على ما قال جونسون و تأييدا له يقول العقاد:

[20] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 113

"سمعنا كثيرا أن الجماهير تؤخذ بالتمليق و الخداع و أنها تحب التغرير و المغررين، و رأينا كثيرا مصداق هذا الذي سمعناه، و لكن التاريخ يعرض لنا حينا بعد حين زعامات تصارح الجماهير و لا تنخذل، بل زعامات تنجح لانها تبده الجماهير بالزجر و الملامة، و كانت زعامة جناح واحدة من هذه الزعامات النادرة في القرن العشرين."[21]

استقلال الرأي: استقلال الرأي هو أحد الخصال التي تتجلى فيها ثقة جناح بنفسه، فهو على الدوام صنو الكرامة، أو لعله نسخة نفسانية أخرى للكرامة بعنوان آخر، فإن الرجل الذي يشعر بكرامته يترفع عن مقام الذنب التابع لغيره و يضن بها أن تمحى في غمار الآراء و الآهواء، و يحذر الهوان و الضعة أشد من حذره الغضب و الخسارة.

و كان جنا ح لا يحيد به عن جادته حيث يعتقد أنه سالك سبيل الحق و الاستقامة و الانصاف، و ليس ثمة مقدار من المعارضة ولا من التهديدات و المخاطر يثنيه عن وجهته. إنه رجل ممتلىء بالشجاعة و الصلابة. و يقول العقاد في وصف جناح باستقلال الرأي:

"لقد كان هذا "الشخص النحيل" يقف وحده متفردا برأيه بين مئات من قادة البراهمة و المسلمين، يزحزحها و يستطيع أن يزحزحها عاجلا أو آجلا، و لكن هذه المئات

[21] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 113-114

لاتستطيع أن تزحزح ذلك "الشخص النحيل". لقد كان يخالف الهند كلها و يبرح الهند كلها إلى حين. أما أن يرجع أو ينثني غير مقتنع ولا طائع فذلك هو المهرب الذي لايفهمه و لا يخطر له على بال."[22]

و قال السير شانكام شيتي: "إنه ذو استقلال لا مثنوية فيه."

و قال جناح بنفسه مرة: "إنني رجل أهتدي في عملي بتفكير الدم البارد و المنطق و المرانة القضائية."

ثقة الناس به: إن الثقة تعدي .. و هذه الثقة من جناح بنفسه و رأيه هي التي سرت منه إلى نفوس الجماهير، فجلبت إليه ثقة الجماهير، بغير مساومة و بغير اقتفاء، و بغير احتيال. نعم إن الثقة تعدي، و قد أعدت ثقة جناح بنفسه نفوس أتباعه و رعاياه فأسلموه مقادهم، مطمئنين إلى عزمه، كاطمئنانهم إلى حكمته و حكمه.

غير أن هذه الثقة التي امتلأت بها نفوس أمة كاملة كانت لها في تلك النفوس دواع غير التي استمدتها من نفس قائدها. كانت سمعته العالية بالأمانة و الإستقامة أكبر دواعيها، و قد ذاعت سمعته بالأمانة و الاستقامة منذ ذاعت له سمعة.

اشتغل جناح بالمحاماة و شاع عنه أنه لا يقبل قضية باطلة، و أنه لا يرفض قضية عادلة و لو كانت الأسانيد فيها خفية و المتاعب فيها مجهدة.

[22] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 118

و عرض عليه أحد التجار الكبار عشرة آلاف روبية للمرافعة في قضية، و لاح له من ضخامة الأوراق في ملف القضية أنها تستغرق منه وقتا يشغله عن قضاياه الأخرى، فاعتذر لصاحب القضية، و ألح عليه الرجل لشكه في استطاعة محام غير جناح أن يحسن الدفاع عن حقه، و قال له: راجع الأوراق حتى تنفد المكافأة و لك بعد ذلك أن تتوقف عن القراءة. و كان جناح يقدر المكافأة بالساعات التي تشغلها الفضية في أيام العمل، فلما فرغ من مراجعة الأراق وجد أن حسابه لا يزيد على ثلاثة آلاف و خمسمائة روبية، فرد إلى الرجل المذهول بقية العشرة الآلاف، و قد كان يراها أقل من جزائه!

وفي ذلك يقول العقاد:

"و من الناس من يثبت أمام إغراء المال و يضعف أمام إغراء اللقب أو الوظيفة، و منهم من يثبت أمام اغراء اللقب و الوظيفة و يضعف أمام أغراء السطوة و السلطان، و لكن الفتن النفسية التي امتحن بها الرجل قصدا أو على غير قصد قد أبرزت منه معدنا يثبت على كل اغراء، فلا المال يفتنه و لا اللقب يستهويه ولا السطوة تعجبه أو تكبر في نظره."[23]

فقد نودي به "شهنشاه" الباكستان فامتعض و وقف في سيارته يوبخ الهاتفين له بهذا اللقب، و يقول لهم إن خير ما يرجوه أن يكون خادم الباكستان، لا سيد الباكستان.

[23] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص:121

و عرضوا عليه أن يولوه رياسة الدولة مدى الحياة فأنكر هذا المبدأ، و أقام القاعدة لمن يليه إلا رئاسة مدى الحياة.

و عرض عليه حزب المؤتمر قبل ذلك أن يختاروه رئيسا دائما للمؤتمر، فقال لهم إنهم إذا قبلوا آراءه التي يخالفونه فيها و يخالفهم فهو سعيد بأن يظل عضوا كغيره من مئات الأعضاء.[24]

قوة البيان: مهما تكن عناصر القوة في الزعماء الذين ينشئون الدول بغير السيف فالبيان قوة لاغنى لهم عنها، و بخاصة في هذا العصر، عصر المؤتمرات و المناقشات و الأحاديث الصحفية و الردود عليها. لا غنى للزعيم عن قوة البيان.

و كان جناح قد سمحت له الفطرة حظا وافرا من قوة البيان، و كان بيانه، في دعوته و أعماله السياسية، بيانا خاصا به لايشبه بيان أحد من زعماء الأمم في عصره. و كانت خاصة هذا البيان أنه بحسن تلخيص المسائل المعقدة في كلمات مؤجزة تعلق بالذهن لما فيها من المفاجأة النافذة: تلك المفاجأة التي يشعر السامع لأول وهلة أنها حلت له العقدة بمجرد التعبير عنها في وجازة و صفاء.

[24] المرجع السابق

و كانت له مع هذه الخاصة خاصة الجواب المسكت و العرض المقنع، أو خاصة الضربة السريعة التي يتلقاها المهاجم و قد ظن أنه أصاب الرجل في المقتل، فإذا هو المصاب.

كان جناح لا يتلجلج و لا يتلعثم إذا فوجئ بالسؤال المحرج أو السؤال الذي يريد به السائل الحرج، بل يلاحق السائل بالجواب المسكت الذي يقطع اللجاجة قطع الموسى الرميضة لخيوط الشباك.

قال له صحفي إنجليزي مرة في مقام الاعتراض: و لكنك يا سيد جناح كنت يوما عضوا بالمؤتمر. قال: " نعم، و كنت يوما تلميذا بالمدرسة الإبتدائية."

و قال له زعيم هندي يحارب اقتراح الباكستان: "إننا لا نفهم ما هذه الباكستان التي تدعو إليها؟"

فقال: "و لماذا إذن تحاربها قبل أن تفهمها؟"

و لما قيل له: "إنك عجزت عن تأليف وزارة، فما بالك تطمح إلى إنشاء الباكستان؟" قال : "لكيلا نعجز عن تأليف وزارة!"[25]

[25] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 137-138

و اقترح عليه غاندي أن يجتمعا للبحث في مشكلة الوحدة و الانفصال، فقال غاندي في أول لقاء انه ينوب عن نفسه و لا ينوب عن هيئة سياسية، و لم ير جناح نفعا في مباحثة يتقيد بها و يقيد العصبة الإسلامية معه و لا يتقيد بها غاندي ولا المؤتمر، و علق على ذلك في خطاب ألقاه بمدينة بومباي (1945م) قال فيه:

"إنه لا يقنع بمهمة المستشار للمؤتمر و لجنته العاملة، بل يقيم نفسه مستشارا ناصحا للحاكم العام و من ورائه الأمة البريطانية، و تنعقد اللجنة العاملة صباحا مساء و هو الروح الملهمة وراءها. و هو مع هذا يروقه أحيانا ألا يمثل أحدا فلا يمثل أحدا، و يصبح فردا لا صفة له غير صفته الفردية، و لا يعتبر في هذه الحالة عضوا كأولئك الأعضاء ألذين يمثلون المؤتمر بحق الدريهمات التي تخولهم الاشتراك فيه، و ينزل بنفسه إلى مرتبة الصفرليستلهم صوته الباطن ... أما إذا راقه أن يكون غير ذلك فهو السيد المطلق في المؤتمر وهو بهذه المثابة ينوب عن الهند بأسرها."[26]

هذه نتف متفرقة من كلمات جناح في معارض شتى، نحسبها نموذجية في التعريف بخصائص بيانه، و هو وسيلة من وسائل نجاحه في زعامته، و فيها كذلك تعريف بمناحي تفكيره، و هو على جملته تفكير صريح سهل مستقيم.

قضية الباكستان: "كان انفصال الباكستان ضرورة لا محيد عنها. ضرورة حاول ساسة الهند جميعا أن يتجنبوها فلم يفلحوا، وأن يتجاهلوها فلم يستطيعوا، لأنها غير

[26] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 141

قابلة للتجنب أو التجاهل، فهي الحل الوحيد الذي تستقر عليه مشكلات الهند كما تستقر المادة في موضعها بحكم قوانينها، فهي ختام كل محاولة."[27]

وقد كانت المحاولات كثيرة متعددة .. وكان المشتركون فيها كثيرين متعددين، منهم إنجليز ومنهم هنود برهميون أو بوذيون أو جينيون، ومنهم هنود مسلمون على مذهب السنة أو على مذهب الشيعة، وقد يكون من حسن الشهادة للزعماء المسلمين أنهم جميعا بدأوا حياتهم السياسية وهم من أنصار الوحدة الهندية التي تشمل أقوام الهند كافة، وانهم جميعا جربوا كل محاولة قبل المحاولة الأخيرة، ولكنهم كما أسلفنا كانوا يتجاهلون حقيقة لا تقبل التجاهل، فعادوا إلى الاعتراف بها مكرهين، ثم آمنوا بها إيمانا لا يتزعزع. لأن التجارب التي استغرقت كل تجربة معقولة قد خلصتها من الشكوك و ختمت بالحسم الفاصل كل محاولة، فلا سبيل إلى محاولة جديدة.

وكان إيمان الجماهير في هذه القضية سابقا لتفكير الزعماء. كان إيمان الجماهير بوجوب الانفصال شيئا أقوى من الرأي و أقوى من الرغبة وأقوى من الهوى. كان كأنه القبلية المادية التي تتمثل في خصائص الاجسام: جسم لا يقبل الذوبان في جسم آخر، فلا موضع هنا للآراء ولا للرغبات ولا للأهواء.

لهذا تساوى منطق جناح و شعور أتباعه، و لهذا تلاقى تفكيره العملي وغيرتهم القبيلة، فلم تكن به حادة إلى إثارة شعور أو تلبيس حقيقة بطلاء مقبول، لأن الكلمة

[27] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 22

الصريحة المستقيمة هنا كافية بل فوق الكافية، إذا هي الكلمة اللازمة دون غيرها. فكل ما عداها ضياع و إسراف و فضول و من عجائب القصد في أطوار الطبيعة أن يدخر جناح للنهوض بأعباء هذه القضية، لانها قضية لا تتطلب زعامة تنفق جهودها في التزويق والتأثير، بل تتطلب الزعامة التي تجسمت قوتها كاملة في الصراحة والاستقامة إلى القصد، وتجمعت وسائلها كلها في التنظيم ومضاء العزيمة وصحة التفكير، فكان تفكيره السليم وغيرة أتباعه قوتين متشابهتين في العمل والاتجاه.

كان معظم المتتبعين لمشكلات الهند يتخيلون مسألة الباكستان كأنها مسألة قلة تنشق عن الكثرة في وطنها، وكانوا يحكمون عليها كما تخيلوها فيخطئون غاية الخطأ، ولا يحسنون الاهتداء إلى رأى سديد في تلك المشكلات و تصحيح هذا الخطأ هو الخطوة الأولى التي لابد منها قبل الاستقامة على الطريق السوى، فإذا صحح هذا الخطأ أول الأمر فكل خطوة بعده واضحة لمن يريد أن يبصر بعينيه.

لم تكن الهند قط وطنا واحدا بأي معنى من معاني الوطنية، ولم يكن لها قط اسم واحد قبل دخولها في حوزة الدولة البريطانية، و انما أطلق عليها هذا الاسم لانه أيسر من اختراع اسم جديد، وما كانت الهند قبل ذلك تطلق على غير نهر السند ثم واديه، وهو جزء من القارة الهندية كان يجهله كثير من سكانها المتفرقين في أرجائها الفساح.

بل لم تكن قط وحدة جغرافية في زمن من الأزمان، إذا كانت المواصلات فيها منقطعة أو متعذرة، فلم تكن أنهارها موصلة إلى جميع أجزائها، ولم تكن وسائل النقل

فيها تقوى على وحول الأمطار في الشتاء، ولم تكن الحاجة إليها ماسة في غير الشتاء.

وليس سكانها من جنس واحد ولا هم يتكلمون لغة واحدة، فمنهم الآريون والسود، ومنهم قبائل من المستوحشين يبلغون نيفا وعشرين مليونا، ويرجح علماء الأجناس أنهم من أصول القبائل السترالية، وقد أحصى السير جريرسون اللغات واللهجات التي يتكلمها هؤلاء السكان الهنديون فبلغت نحو مائتين و خمس و عشرين لغة و لهجة أكثرها لا يكتب بحروف.[28]

التعصب الديني: والتعصب بين المختلفين في العقيدة من أهل الهند أصعب أنواع التعصب المعروف في كل اختلاف. لأنه لا يقوم على تباعد الآراء بل على تباعد العادات الاجتماعية التي تحس فوارقها في كل يوم بل في كل ساعة، ومن أعسر الأمور تعديلها لأنها تتعلق بالحياة الأبدية لا بحياة الفرد من مولده إلى وفاته، فمن ولد من طبقة المنبوذين مثلا فهو قضاء أبدى يسبق مولده ويلاحقه بعد وفاته، فكل تعديل في نحلة من النحل أو في شعائرها ومراسمها فهو هروب من المشيئة الأبدية التي يتعلق بها خلاص الارواح.

وقد تذمر البرهميون أشد التذمر حين أمرت الحكومة الهندية بإلغاء "ساتي" وهو إحراق النساء مع أزواجهن المتوفين، فلما صدر الأمر بإلغائه في سنة 1829م هبت

[28] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 22-24

عاصفة من السخط على الحكومة وأمطرها البرهميون شكايات يلتمسون فيها إلغاء ذلك القرار، و يقاس على التشبث بهذه السنة مبلغ التشبث بغيرها مما هو أقل منها نكرا مجافاة للشعور والعاطفة الإنسانية. فكل سنة، بل كل عادة، فهي قضاء مبرم لا يجوز عليه التبديل أو التخفيف.

فقد يكون الهندي مسامحا برأيه وفكره، وقد تكون عقيدته في الله عقيدة مسالمة لأصحابه ومعاشريه، ولكن المعضلة الكبرى هي هذه العادات التي تدور عليها معيشة كل يوم وترتبط بها المشيئة الأبدية فلا تقبل المسالمة والمسامحة، وتلك هي المعضلة التي يعانيها المخالفون للعقيدة الهندية حين تكون السيطرة عليهم لأصحاب تلك العقيدة، وحين يكون المرجع كله إليهم في سلطان الدولة، وهذه المعضلة هي خلاصة الضرورة التي جعلت من الحتم الحاتم أن تنفصل الباكستان، أو كما قال القئد الاعظم في تلخيصها: "نحن نأكل البقرة وهم يعبدونها، فكيف نتفق على نظام واحد."

لهذا و لغيره من الاعتبارات الاقتصادية و الجغرافية و العاطفية أصبحت العقيدة قوام الأمة في الهند، وحدث في الهند ما لم يحدث في غيرها من قبل وهو تحول الصلة الدينية إلى صلة قومية.[29]

الإسلام و الاستعمار: و كأنما كانت هذه العوامل القومية بحاجة إلى مزيد يوسع فوارق الانفصال فوق اتساعها فجاءت سياسة الاستعمار بجملة من هذه الفوارق

[29] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 25-27

مقصودة أو غير مقصودة، إذا كان الاستعمار الإنجليزي قد تسلل إلى الهند وليس فيها دولة تقاومه أقوى من الدولة الإسلامية، فوقر في أخلاد المستعمرين أن الخطر على سيطرتهم إنما يتوقع من هذه الناحية قبل غيرها، و عملوا على إضعاف شوكة المسلمين و إقصائهم من الوظائف كبيرها و صغيرها، و كان المسلمون في إبان دولتهم قانعين من الحياة العامة بالوظيفة الحكومية، وذادهم عن الاشتغال بالصيرفة لأنهم يحرمون الربا، و عن ملك الارض ان الأرض لم تكن مملوكة لأحد ولكنها كانت متروكة للزراع و للجباة الذين يؤدون للحكومة حصتها من الضرائب، و كان أكثر هؤلاء الجباة من البرهميين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها، فلما أصدر الإنجليز قانونا لتسوية مسائل الارض الزراعية جعلوا هؤلاء الجباة ملاكا و جعلوا الزراع أجراء في أرضهم، و اعتمدوا على هذا النظام زمنا لتحصيل الضرائب و محاسبة الجباة عليها، فاجتمع الحرمان من الوظائف والحرمان من الارض على إقامة العزلة بين المسلمين و غيرهم في الحياة الاجتماعية.

وما لم يكن من عوامل التفرقة السياسية صادرا من هذا الشعور فهو مقصود مدبر لتعزيز السيادة بالتفرقة بين المحكومين، وهي خطة جهر بها اللورد الفنستون في سنة 1858م و سبقه إلى إعلانها في المجلة الآسيوية سنة 1821م كاتب قال بصريح العبارة "فرق تسد: هو الشعار الذي ينبغى أن نلتزمه في إدارتنا الهندية" و تكررت هذه "النصيحة" في أقوال الرؤساء العسكريين ورؤساء الدواوين.

هذه العوامل جميعا، ما كان منها طبيعيا وما كان منها مصطنعا بتدبير السياسية، قد جعلت المسلمين امة مستقلة تفصلها من الهنديين كل معالم القومية، و أصبحت الموازنة بين أسباب الانفصال و أسباب الاختلاط عند خروج الإنجليز من الهند "عملية حسابية" لا لبس فيها، فكل صعوبة جغرافية أو إدارية تحول دون الانفصال فهي أسهل تذليلا تمهيدا من صعوبات البقاء في ظل حكومة واحدة.

لاجرم كان منطق القائد الاعظم الواضح الرصين مرادفا في معناه و وجهته لشعور الجماهير، فكانت صراحته في دعوته قوة لها و لم تكن عقبة يحتاج إلى تذليلها و تخطيها على سنة الاكثرين من زعماء الجماهير، و صح القول إن شعور الجماهير في هذه المعضلة كان أكثر من حكمة عملية، لأنه كان كالقابلية المطبوعة التي تستقر في خصائص الاجسام.[30]

المرحلة الأولى من سياسة جناح[31]: تعددت نظم التربية التي تفتح عليها ذهن جناح الصغير قبل حصوله على إجازة التعليم الثانوي في السادسة عشرة من عمره. تعلم في مكتب أولي من المكاتب التي تتابع النظام المألوف في تعليم الصغار في الشرق منذ عشرات القرون، ثم تعلم في مدرسة حديثة تابعة لجماعة إسلامية، ثم تعلم في مدرسة حديثة تابعة لجماعة مسيحية، ثم تعلم في الجامعات الإنجليزية و تلقى خارج

[30] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 27-29

[31] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 94-105

الجامعات ما يتلقاه الشاب في ذلك العصر من المعارف العامة الميسرة لمن يختلفون على الأندية وأصحاب الأراء.

كان القانون و الأدب و مراجع التاريخ من ناحيته السياسية على الخصوص من الموضوعات التي أولع بها جناح أثناء دراسته في إنجلترا. و كان يتعلم القانون رغبة و استعدادا لا لمجرد التوسل به إلى مناصب القضاء والإدارة، وكان ذهنه من أذهان الفقه والمحاماة والفصاحة الخطابية طبعا و فطرة لا تعلما و مراسا بالصناعة.

و كان غرامه بالأدب شغلا شاغلا يكاد أن يتفرغ له لولا قدرته على تنظيم دراسته وتقسيم وقته، فاشترك في ناد يدرس أعضاؤه روايات شكسبير قراءة وشرحا وتمثيلا، ومثل بعض الشخصيات في رواياته التاريخيه وغير التاريخية وراض لسانه و حركاته على الالقاء المسرحي حتى لزمته هذه العادة في مرافعاته وخطبه، فلوحظ عليه أنه يسترسل في الإلقاء الفني على غير انتباه منه، وكان خصومه يغتنمون هذه الفرصة فينعتونه بوصف الممثل قدحا في آرائه السياسية أوحججه القانونية، وهو مطعن سهل رخيص قد تسوغه اشارات الرجل وحركاته بحكم العادة، ولكن ليس في أقواله ومعانيه جميعا ما يسوغ ذلك المطعن لمن ينصفون في النقد والاتهام.

وقد لزمته عادة الإلقاء الفني من أوائل أيامه في الحياة النيابية إلى أخريات أيامه في الزعامة وإقامة الدولة، وأفحم مرة أحد الاعضاء الإنجليز في الجمعية التشريعية أثناء المناقشة الحامية على الاتفاق التجاري بين بريطانيا العظمى والهند، فقال العضو

الإنجليزي – واسمه السير جيمس – إن الأستاذ جناح كوكب لامع: كوكب يشبه جريتا جاربو في ملكاته التمثيلية. فأخذ جناح تكرار آراء السير جيمس الفاجعة ووعيده بهجومم اليابان وإحجام الدولة البريطانية و مستعمراتها عن معاملة الأسواق الهندية، وقال: "لعل صاحبنا لايحسن كلاما غيرالإنذار بالفواجع. إنها ملكة جديرة بممثلة المآسي مارلين ديتريش ... و إن هذه الفاجعة نفسها لمأساة!" و كان هذا في سنة 1939م أي بعد عودته من البلاد الإنجليزية بأكثر من أربعين سنة.

ولم يكن إلقاؤه الفني كل ما بقي من عاداته منذ دراسة الأدب و الاندماج في الجو الشكسبيري أو جو الشعر المسرحي على الإجمال، بل كان عرض التاريخ عرضا حيا أحد الفوائد الفكرية و النفسية التي غنمتها قريحته اليقظى من أدب شكسبير، و كانت سرعة الشاهد الأدبي على لسانه تارة من كلام شكسبير و تارة من كلام برونتج و زملائه في عصره احدى الفوائد التي تصلح لمواقف الخطابة و المساجلة، و كانت فيما عدا ذلك منصرفا حسنا له عن هموم الحياة الخاصة و مزعجات السياسة كلما ضاقت حلقاتها، و كثيرا ما تضيق و عرف زملاؤه عنه في لندن أنهم إذا بحثوا عنه فلم يجدوه تفقدوه في مكتبة المتحف البريطاني حيث يجد بغيته من أسفار التاريخ و نسخ المراجع النادرة في السياسة العصرية و السياسة الغابرة، و كانت ساعاته في لندن مقسمة بين الجامعة و مكتبة المتحف و نادي شكسبير و واجبات المجتمع التي لم ينسها قط طول حياته، و منها زيارة إخوانه من أبناء الهند و أصحابه و أصحاب أسرته من الإنجليز.

و قد وصل إلى إنجلترا و هو في السادسة عشرة و عاد منها إلى وطنه و هو في العشرين، و بدأ اتصاله بالحياة العامة في هذه الفترة على سنته التي نصح بها الطلاب في مثل سنه بعد اشتهاره و الاعتراف بزعامته، و سنته هي أن الاهتمام بالمريض غير ادعاء القدرة على علاجه، و ان الطالب يستعد لغده و يخدم وطنه باستيفاء عدته و خبرته، ولا يخدمه بتعجل العمل قبل ادائه .

و كان أول اتصال له بالحياة العامة نشاطه مع زملائه الطلبة الهنود في ترشيح شيخ الهنود المقيمين بلندن يومئذ – دادا بهائي نوروجي – لإحدى الدوائر البرلمانية، و هاجه سخطا قول اللورد سلسبوري بشيخ الهندي إنه من السود الملونين ... مع أن ناروجي كان أنصح بشرة من جمهرة الإنجليز، فوقر في خلده من ذلك اليوم أن الألوان نفسها، تتغير في رأى المستعمرين إذا بدت على بشرة الشرقيين.

و تعد هذه المناوشات السياسية أثناء الدراسة بإنجلترا حادثا هاما في حياة جناح العامة، لأنها عينت له مدرسة السياسة التي يؤمن بصلاحها لتوجيه وطنه في تلك الآونة، و هي مدرسة المعتدلين أمثال ناروجي و جوكهيل و فيروز شاه و راناد، و كانت هي المدرسة التي تتوسط في مسائل العلاقات بين الهنود و الإنجليز و بين البرهميين و المسلمين من الهنود و بين التشبث بالقديم و الشطط مع الجديد.

و لم تتقبل طبيعته مبادىء هذه المدرسة "المعتدلة" لسهولتها كما توحي صفة الاعتدال أحيانا إلى أذهان المستمعين من بعيد، فإن التوسط بين المذاهب المتطرفة

كثيرا ما يسفر عن عداء الجميع و اعتزال جميع الأطراف، و لكنه تقبل مبادئ المدرسة المعتدلة لأنه آمن بصلاحها على وعورة سبيلها و كثرة الشروط التي يتطلبها التصدى لأعبائها و تكاليفها، و كان امتحانه الأول في سياستها أعسر امتحان يعرض السياسي الناشئ في أول حياته العامة، و هو موقف الساسة الهنود على تباين آرائهم و نزعاتهم من تقسيم البنغال.

كان تقسيم البنغال من معضلات الهند الشائكة التي لا يتأتى الحكم عليها بمقياس واحد ولا يسهل على كل سياسي أن يقبلها أو يرفضها جملة واحدة، لأنها نافعة ضارة، بريئة الظاهر في بعض جوانبها مدخولة الباطن في جوانبها الأخرى.

كانت بحق عقدة تحير الباحث فيها من المسلمين خاصة، و قد يرفضها الهندي البرهمي بغير تردد و لكنها لا تقابل بالرفض في البيئات الإسلاميه بهذه السهولة.

يومئذ قرر تقسيم البنغال إلى إقليمين لكل منهما إدارة منفصلة عن إدارة الإقليم الآخر، و كان عدد سكان البنغال نحو سبعين مليونا من البراهمة و الهنود، يقيم المسلمون في أصقاعه الشرقية و يضطرون إلى ربط أعمالهم و مرافقهم بمدينة كلكتا عاصمة الاقليم كله. و في ذلك تعطيل لمصالحهم و إكراه لهم على إخضاع تلك المصالح لفئة من ذوى اليسار البرهميين المسيطرين على العاصمة و على الأصقاع الغربية، فإذا انتقلت العاصمة في الإقليم الشرقي إلى "داكا" خفت هذه السيطرة و

تهيأت للسكان المسلمين فرص الاستقلال بالمرافق التجارية و الاقتصادية، و هكذا كان لورد كرزون يعلل مشروعه في تقسيم الإقليم الكبير.

إلا أن المسألة ذات وجهين ظاهر و باطن، و هذا هو ظاهرها المعقول. أما باطنها المستور فهو الانتقام من ذوى اليسار الذين كانوا يؤيدون في ذلك العهد حركة الاستقلال و المطالبة بالحكومة الذاتية و يمدونها بالمال و يتعهدونها بالتشجيع و التحريض، و هو عدا هذا ضربة مصوبة إلى الوحدة الوطنية بين البرهميين و المسلمين، و مثار للشقاق الدائم بين الفريقين في البنغال يتبعه لا محالة شقاق دائم في سائر الأقاليم .

كان هذا في سنة 1905م بعد عودة جناح من إنجلترا بتسع سنوات، و كان تقسيم البنغال لعبة بارعة لم يحسب المستعمرون أنها سوف تصبح بعد أربعين سنة مبدأ حاسما يقضي على سلطانهم في قسمين أكبر من قسمي البنغال و أخطر، و هما دولة الهند و دولة الباكستان.

و من عبر التاريخ و تقلبات أطواره أن بطل التقسيم الكبير كان أشد المعارضين لتقسيم البنغال على الرغم من اغتباط المسلمين به و اعتبارهم اياه خيرا سيق اليهم دون أن يسمعوا إليه.

لقد ظن حكام الهند يومئذ أن الغنيمة أعظم من أن ترفض و أن تكشف ما وراءها من مآرب الاستعمار، فلم يكترثوا لإخفاء هذه المآرب و راح رؤساؤهم يعلنونها و راحت صحيفتهم "ستيتسمان" لسان حالهم في العاصمة تبسطها بغير مواربة، فقالت كما روى شلفنكار في كتابه عن مشكلة الهند: " إن المقصود بها هو تربية قوة إسلامية في شرق البنغال يرجي ان تكبح تلك القوة المتزايدة في زمرة البرهميين المتعلمين."

و لكن جناحا كان أقوى شكيمة من أن تقتاده الغنيمة صاغرا، و أيقظ بصرا من أن يتناول الطعم من يد الصياد المائل أمامه إعلانية بالمرصاد. و كأنما كان يلحظ بعين الغيب عاقبة هذا التقسيم، و أن الصياد سيخلق منه طعما آخر و يرجع عن التقسيم بعد حين ليجعل من الضغن ضغنين و من السخط الجديد مسعرا يلمع به نيران السخط القديم.

على أن جناحا لم يخسر ثقة المسلمين بثباته على سياسة المدرسة المعتدلة في معضلة البنغال، لأنهم اعتقدوا اخلاصه و فهموا موقفه على حقيقته و أدركوا انه نظر فيه إلى غاية بعيدة: و هي أحباط دسيسة استعمارية تنقلب منافعها أضرارا مطبقة تحيق بالجميع، فانتخبوه في سنة 1909م عضوا للمجلس التشريعي الإمبراطوري عن بومبائ، و قابل هذه الثقة بالمثابرة على مبدأ الوحدة الهندية و الدفاع عن حقوق الهنود حيث كانوا و على اختلاف العقائد التي يدينون بها داخل الهند أو خارجها، و في إحدى مناقشات هذا المجلس وقعت المشادة المشهورة بينه و بين اللورد منتو

حاكم الهند، لأنه وصف معاملة حكومة الناتال للهنود المقيمين فيها بالفظاعة، و نبهه الحاكم إلى أن هذه الكلمة ليست من الكلمات البرلمانية التي تسمع من أعضاء المجالس على الكلام على حكومة أخرى، فلم يشأ جناح أن يتراجع و لم يشأ كذلك أن يكابر في أدب من آداب التقاليد الرسمية، و مضى قائلا: "نعم يا لورد .. و أراني أنبعث إلى استخدام لهجة أقوى لو أنني طاوعت نفسي، و لكنني ألاحظ دستور هذا المجلس و لا أحب أن أتخطاه لمحة عين، إلا أنني أقول إن المعاملة التي ابتلي بها الهنود هناك أقسى ما يمكن أن يتخيله المتخيل، و أن الشعور الذي تقابل به في الهند شعور اتفاق و اجماع."

و بعد انتخابه للمجلس التشريعي الإمبراطوري بسنة وقع عليه الاختيار للوساطة بين نواب البرهميين و نواب المسلمين الذين اجتمعوا في " إله اباد " للتشاور في قواعد الوحدة.

ثم عرضت مسألة الوقف في سنة 1913م و لم يرض فيها عن مسلك البرهميين و لا عن مسلك الحكومة الهندية، و كلف نفسه دراسة هذه المسألة من الوجهة الفقهية و من الوجهة الاجتماعية، و خامره شك منذ تلك السنة في إمكان خدمة الهنود جميعا باقتصار عمله على المؤتمر، فاستجاب رجاء مولانا محمد علي الرامبوري و السير السيد وزير حسن و قبل الانضمام إلى العصبة الإسلامية على شريطة التوحيد بين سياسة الهيئتين.

و كان في تلك السنة قد ندب للسفر إلى لندن لشرح المطالب الهندية، فاشتغل في هذه الرحلة بإنشاء جماعة مركزية بالعاصمة الإنجليزية لرعاية الطلبة النهود، و ندب بعد عودته مرة أخرى للسفر إلى العامة الإنجليزية و النيابة عن المؤتمر في عرض مقترحاته التي يبني عليها انتخاب الأعضاء الهنود في مجلس وزارة الهند، ثم عمل من سنة 1915 إلى سنة 1920 على عقد مجلس المؤتمر و مجلس العصبة الإسلامية في موعد واحد و مكان واحد، لأنه – و هو عضو في الهيئتين – كان يقدر أنه مستطيع أن يتدارك كل بادرة خلاف قبل أن تتشعب و تستعصي على التوفيق.

إلا أن سنة 1915م في الواقع قد دخلت بالسياسة الهندية عامة في طور غير طورها الذي استقامت عليه إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، و مرجع هذا التحول إلى حادث شخصي و حادث عالمي في وقت واحد.

فالحادث الشخصي هو وفاة الزعيم جوكهيل الذي كان مناط الثقة بقضية الوحدة عند الجميع، والحادث العالمي هو شيوع الكلام عن حقوق الأمم المحكومة أثناء الحرب العالمية و بعدها، فقد كانت السلطة العظمى أو السلطة العليا كلها في أيدي الحكام الإنجليز قبل نشوب الحرب العالمية، فكان الاتفاق على مكافحتها غير عسير و كان التنازع على الحقوق التي لا وجود لها أمرا من الأمور التي لا تلجيء الضروريات العاجلة إلى حلها و البت فيها، فلما بدأ البحث في تنظيم الحقوق الوطنية بدأ البحث في ضمانات تلك الحقوق، و بدأ التشدد هنا و الحذر هناك.

و لهذا يمكن أن يقال أن المرحلة الأولى في حياة جناح العامة قد انتهت سنة 1915، و أن اليقين بإمكان العمل على خدمة الهنود جميعا في هيئة واحدة هي هيئة المؤتمر قد تزعزع منذ تلك السنة، ثم نشأت المرحلة الثانية التي انعقدت فيها النيات و العزائم على استقلال الباكستان، و لكنها لم تنشأ دفعة واحدة منذ الخطوة الأولى، فقد بقي جناح بين الحربين العالميتين يحاول لاتوسط على عادته في "المدرسة المعتدلة" و يعتقد أن خدمة الهند جميعا مستطاعة بالتوفيق بين الهيئتين، و أن الاتفاق على الضمانات المتبادلة يرضي البرهميين و يرضي المسلمين، و مساعيه في هذا المجال جعلته رسول الوحدة الهندوسية الإسلامية، و لكن الحرب العالمية الثانية قد أوشكت أن تقضي على البقية الباقية من سلطان الاستعمار و أن تقيم الحكم الهندي في مكانه على مدى سنوات معدودات، فتحول البحث من الإتفاق على مقاومة المستعمر إلى الاتفاق على قواعد الحكم الوطني و ضماناته، فتبين مع الزمن أن الاتفاق على الفروض أيسر من الاتفاق على الحقيقة، كلما اقتربت من الواقع الماثل للعيان.[32]

المرحلة الثانية من سياسة جناح[33]: بدأت سنة 1915م بمرحلة جديدة في حياة جناح العامة، و هي المرحلة التي وضح فيها لجناح أن هيئة المؤتمر لا تكفي وحدها لخدمة القضية الهندية، و أن الاعتماد على هيئتين اثنتين أمر لا مناص منه في هذه المرحلة.

[32] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 94-105

[33] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص:124-126

لكن رد الفعل الذي طرأ من جراء هذا التحول لم يتجه بتفكير القائد الأعظم أول الأمر إلي التباعد و توسيع الشقة بين الهيئتين، بل كثيرا ما كان رد فعله اجتهادا في التوفيق و التقريب و مبالغة في الأعضاء و المسامحة رأبا للصدع و منعا للفتنة و توتر الأعصاب من الجانبين، فاحتمل جناح في هذه المرحلة ما لم يكن يفعل، و أيد أشد الغلاة في موقفهم أمام الدولة البريطانية و منهم اتباع طيلاق الذي كان يجهر بأن الحركة القومية في الهند تحارب الدخلاء الهنود، و يعني بهم المسلمين، كما يحارب الدخلاء الإنجليز.

و ظل البراهمة إلى سنة 1921م يهتفون باسم رسول الوحدة جناح و يعترفون له بالفضل في التوفيق و التقريب، و أعربوا عن اعترافهم هذا ببناء قاعة في بمباي أطلقوا عليها اسم قاعة جناح و نقشوا على حجر الأساس فيها عبارة فحواها أن هذه القاعة "بنيت تقديرا للسيد جناح اعترافا بخدماته الخالده لقضية الهند في سنة 1918م" و افتتحتها الشاعرة الهندية سروجيني نايدو و أبرقت إليه و كان في باريس تقول "لقد عرفت الأمة فضل الرسول في حياته." و قد لبث جناح سنوات طوالا بعد سنة 1915م و هو يلخص وظيفة العصبة الإسلامية باقتداره المعهود على تحديد العبارات فيقول لمن يناقشه في وجودها: "إذا كان المؤتمر هو حكومة المستقبل فالعصبة هي المعارضة الدستورية التي لابد منها ولا ضير فيها."

غير أن الخلاف لم يكن مداره كله على الضمانات الإسلامية، بل كان مع هذا و أهم من هذا – خلافا بين عقليتين و منهجين و مزاجين : كل خلافا بين سياسة القديس و سياسة القائد العامل، سواء في القضية الهندية العامة أو في قضيتي البرهميين و المسلمين منعزلتين.

كان غاندي يبشر بمقاطعة الصناعة العصرية و مقاطعة المدارس و مقاطعة الوظائف، و يحارب الإنجليز "بالأهمسا" و يفرضها جاهدا على أتباعه و هم يعملون بها تارة و ينقضونها تارة أخرى.

و كان جناح يؤمن بأن مقاطعة الصناعة ضربة للحياة الاقتصادية في الهند تصيبها كما تصيب بريطانيا الظمى، بل ربما كانت الإصابة الهندية أقدح و أخطر من الإصابة البريطانية.

و كان يقول إن اقامة مصنع جديد إلى جانب المصنع القديم أنفع من ألف مغزل في المدينة و القرية، و إذا لاحظنا أن المصانع الهندية كانت، أو كان معظمها، ملكا للبرهميين دون المسلمين، تبين أن الرجل انما كان ينظر إلى مصلحة الجميع ولا يقصر نظره في مناهضة غاندي على مصلحة المسلمين.

و كان يسأل: ماذا يصنع الطالب إذا لم يتعلم؟ و ماذا يفيد الهند من إخلاء الدواوين من الوطنيين وتسلمها جملة واحدة للغاصبين؟

و قال غير مرة إن الزعامة السياسية قدوة يأتم بها الاتباع و المتعلمون، فهل من الممكن المعقول أن يصبح الهنود كلهم قديسين كالمهاتما غاندي؟ و هل ينفع الهند أن يصبح أبناؤها جميعا على هذا الغرار في السياسة القومية و المعيشة اليومية؟

و صواب جناح في نظره كصواب غاندي في نظره: كلاهما مستمد من صميم وجدانه و صدق إيمانه، و لم يكن الرجل ممن يغالطون أنفسهم في الحقيقة التي تثبت في ضمائرهم أو يستبيحون مجاراة التيار و كسب الرضى بالمجاراة و المداراة و لو أجمع الناس ما عداه على مجاراته و مداراته.

و قد أجمع الناس فعلا في إبان حركة المقاطعة و حركة الخلافة عن مذهب في العمل السياسي لا يرتضيه فوقف وحده يناضل و يقاوم حتى أعياه اقناع الرأي العام و ثنيه عن جماحه، فهجر الهند و أقام في إنجلترا معولا على الاشتغال فيها بالمحاماة و الانقطاع عن السياسة حتى يثوب المختلفون إلى رأى يقبله و يؤمن بجدواه.

رئاسته للعصبة الإسلاميه[34]: لقيه الأستاذ البيروني صاحب كتاب "صانعي الباكستان" خلال هذه الفترة و هو مقيم في إنجلترا سنة 1932م فقال له و هو يحاول أن يستعيده إلى ميدانه: "و ما العمل؟ إن البرهميين قصار النظر و لا أمل لي في إصلاح أخطائهم، و المعسكر الإسلامي ممتليء بأولئك الخلائق و التي لا عظام لها و التي تقول لي ما تقول ثم تبادر إلي صاحب السلطان لتسأله عما ينبغي أن تعمل؟"

[34]عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 127-134

و طفق المسلمون يبحثون عن قائد، و طفقت الدعوات إليه تتوالى لاستعادته إلى نشاطه، حتى عن له من أشتات المعلومات التي تبلغه أن العمل ممكن على منهاجه، و أن الأمة الإسلاميه قطيع بغير راع، فاستخار عزمه و قفل إلى بلاده تلبية لصوت الواجب أو صوت التبعة الكبرى التي استقرت على كاهله دون غيره، فرجع على شيء من الأمل، و نفض عنه و ساوس التردد و القنوط.

كان الزعيم محمد علي قد فارق الدنيا، و كذلك الزعيم محمد شافعي الذي طالت رعايته للعصبة و بذل ما بذل في حياته لاستبقائها و لم شملها، و كان الزعيم "آغا خان" يلتفت إلى الهند مرة و يلتفت إلى مصائف أوربة و ميادين السباق فيها مائة مرة، و كانت العصبة في غيبة الرؤوس الصالحة على وشك الانحلال فأجمع أعضاؤها في سنة 1934م على اختيار جناح رئيسا لها مدى الحياة و هو مقيم بإنجلترا، فاضطر إلى العودة وصفى أعماله و روابط معاملاته، و هي ليست بالقليل.

و لم تمض أيام على تسلمه مهام الرئاسة حتى شعر أعضاء العصبة و من يعملون معها بدم جديد يسري في أوصالها، و تحرك الجواد الذي قيل قبل ذلك أنه جواد ميت يلهبون جلده بالسياط، و علم في أرجاء الهند أن هناك قوة جديدة يحسب لها حساب بعد أن لم يكن لها حساب.

إن هذه العصبة أنشئت بأموال الاغنياء، و لم يكن من ذلك بد في أول الأمر، لأنها أنشئت لتقابل دعوة المؤتمر الهندي بدعوة مثلها، وليست موارد المؤتمر باليسيرة

لكثرة أعضائه و كثرة المشتركين فيه من أصحاب الملايين، فأصبح لزاما على أعضاء العصبة أن يوفروا لها المال و أن يضاعفوا رسوم اشتراكها و يعتمدوا على تبرعات المتفضلين من أنصارها، فنفعها هذا السخاء من حيث ضرها، نفعها بما وفر لها من الموارد و ضرها بالعزلة بينها و بين سواد الشعب من الفقراء و أصحاب الرزق المحدود، و أوشك أن يقوم بينها و بين الشعب سد من سوء الظن و حاجز من الوحشة و الجفاء لهذه العزلة التي كانت في مبدئها عزلة اضطرار لا عزلة اختيار.

و فطن جناح لهذا النقص فأسرع إلى تلافيه و أعانه على ذلك تقدم الشعب في فهم الهيئات السياسية و تنظيم العلاقة بها، فعدل دستورها و جعل الاشتراك يها حقا مباحا لكل من يؤدي رسمه الصغير و لا يزيد على عشرة مليمات، و بث الدعوة لها في الأقاليم و نشر فيها لجانها الفرعية و المركزية، و بذل غاية وسعه للتفاهم مع الجماعات التي طال العهد على تأسيسها و عز عليها أن تفاجئها العصبة في هذا الدور الجديد بمنافستها القوية، و لم يحجم عن التفاهم مع المؤتمر و تبادل المساعد معه في الانتخابات التي يعول مرشحوه فيها على المسلمين و لا يخشى من منازعتهم لأحد من المسلمين في دوائره.

و اتبع في إدارة العصبة نهجا ديمقراطيا يؤازره نهج دكتاتوري صارم عند اللزوم. فإذا أنس من بعض الأعضاء اعتراضا أو سمع منه نقدا جمع المجلس و بسط فيه موضوع الاعتراض أو النقد للمناقشة في صراحة و سماحة، و قد تطول المناقشة

ساعات و تؤجل من جلسة إلى جلسة حتى تتقارب وجهات النظر أو يقر المعارضون رأى الموافقين.

فإذا لزمت الصرامة عمد إليها في حزم و سرعة كائنا ما كان مقام الاعضاء أو غير الاعضاء الذين استوجبوا تلك الخطة الصارمة، و من ذاك أنه أسرع إلى فصل كل وزير مسلم قبل الوزارة بغير إذان العصبة، و كلهم من أصحاب المقامات و الأخطار الكبار، و لما نوقش في قراره قال إن الشعب الإسلامي لم يطالب بحقوقه لتفرض عليه "السلطة" مرشحيها و تحسبهم عليه نوابا يعملون بمشيئته و يستمتعون منه بالثقة و التأييد، و لكنه طالب بتلك الحقوق ليختار من يشاء ولا يترفع أحد عن الرجوع إليه قبل ولاية الحكم الذي يستمده منه و يجريه عليه.

و لقد ظهرت يد جناح في تنظيم العصبة و جذب الأنصار إليها ظهورا مفحما في الانتخابات الثانوية التي أجريت ما بين سنة 1938م و سنة 1942م، فإن العصبة نجحت في ست و أربعين دائرة من ست و خمسين، و لم ينجح من مرشحي المؤتمر المسلمين غير ثلاثة نواب، و بقية الناجحين من المستقلين.

و أذيع إحصاء عن عدد المشتركين في العصبة سنة 1941م فبلغوا مليونا و تسعة و ثمانين ألفا، و هو عدد يقارب عدد المشتركين في المؤتمر على قدمه و ضخامة موارده، و لم يكن أعضاء العصبة يزيدون في سنة 1939م على ست مائة ألف من المشتركين، و هو مع هذا عدة أضعاف المشتركين قبل ذلك بأربع سنوات.

أما "المشروعات" و الدساتير التي عرضت على العصبة لتسوية القضية الهندية في أيام رئاسة جناح فهي متعددة و المهم منها هو مشروع الحكومة الاتحادية الفدرالية الذي عرض للتنفيذ في سنة 1935م و كان منذ فترة قريبا إلى القبول مع تنقيح بعض نصوصه، فلما عرض في سنة 1935م رفضه المؤتمر و رفضته العصبة، و علة رفض العصبة له صلابة المؤتمر في مسألة المرشحين و رفضه لكل مرشح في الأقاليم لا ينتمي إلى المؤتمر، ثم حصر السلطة العليا في أمور الدفاع و السياسة الخارجية و الخزانة بين يدي الحكومة المركزية، و أقوى من هذا و ذاك سوء الظن الذي فشا بين المؤتمريين و العصبيين خلال السنوات الأخيرة، فإنه جعل استقلال الحكومتين حلا وحيدا لا محيص منه و لا طاقة لأحد بتعديله، و من البديهي أن المؤتمريين لم يتشبثوا بالوحدة إلى اللحظة الأخيرة عشقا لطلاب الانفصال و حرصا على استبقائهم، و لكنهم تشبثوا بها لأنهم أصحاب الكفة الراجحة فيها.

على أنه من الثابت أن العصبة لم تتبع خلال الفترة من المناداة بالتقسيم إلى تنفيذه خطة من الخطط في مسألة كبيرة أو صغيرة ترمي بها إلى إحباط الاستقلال و تغليب البريطان على البراهمة، فكل برامجها كانت تبدأ و تنتهي بطلب الاستقلال للحكومتين، أو كما قال جناح بأسلوبه الناصع الساخر: "ان استقلال البقرة رهين باستقلال الباكستان!"

وفاء حتى الممات[35]: قال جناح يوم المناداة بقيام دولة الباكستان: "إن الباكستان وسيلة و ليست بغاية" و إن قيامها ابتداء عمل ليس له انتهاء.

و جاء الواقع بحوادثه التي لا تنتهي و مطالبه التي يأخذ بعضها برقاب بعض فأعاد ما قاله القائد الأعظم يعمل في رئاسة الدولة كأنه لم يعمل شيئا قبل ذلك و كأنه مطالب بعد اليوم بأن يعمل كل شيء.

و كان عمله من قبل مرهقا معنتا فأصبح – بعد النجاح – أشد إرهاقا و عنتا.

و هذا هو النجاح الذي تتشبث به أحلام بني آدم و حواء: أعظم ما يكون أقسى ما يكون على الناجحين.

و قد حدث لليائسين كثيرا ان بخعوا أنفسهم، و لم يحدث لناجح أنه بخع نفسه إشفاقا من نجاحه. و ما أغناه عن ذاك؟ إن النجاح لقمين أن يعمل ما لم يعملوه. إلا أن القائد الأعظم كان يرهق نفسه قبل قيام الدولة، و عنده ذخيرة من القوة يسعفها مدد من الصحة و الشباب. و أما بعد قيام الدولة – و هو في السبعين – فالجهد في ازدياد و الطاقة في نقصان. و علم أحباؤه هذا و لم يجهله أحد، فما هو من الخفاء بحيث يختلف فيه علم الأطباء و علم الدهماء. بل علمه القائد الأعظم قبل أن يعلمه طبيب، و كأنه لم يعلمه و لم يقع في خلده أن يعلمه، فلم يستمع إلى تحذير و لم يحفل بنذير.

[35] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 161-164

و كلما وعد أن يمسك عن العمل، أو أن يجعل لعمله حدا، غلبته شهامة قلبه فنسي الوعد الذي لم يتعود قط أن ينساه، و أكب على عمل جديد، تعقبه أعمال جديدة، لأن الكف عن العمل – و هو ناظر إلى مطالبه – يتقاضاه من القلق و الجهد أضعاف ما يتقاضاه شغلان فكره بالأعمال.

و عذره لنفسه سائغ معقول إلا أن الشيخوخة في السبعين، و معها أعياء القلب، لا تسيغ ذلك العذر و لا تعقله، و يستوي عندها من يجترىء على حكمها القاهر معذورا أو غير معذور إلى أن بلغ الكتاب غايته و حم الأجل في يوم من أيام الصيف التالي لقيام الدولة الفتية، فشوهدت في سماء العاصمة طائرة قادمة من "بلوخستان" في ساعة الغسق، قل من كان يعلم ما فيها تلك الساعة ... و فيها القوة المحركة للدولة كلها، جاءت إلى عاصمتها لتصبح رفاتا بعد ساعات.

و كان حرس المطار من العارفين بوديعة تلك الطائرة المدلجة في الظلام، فأدوا لها التحية، و شاهدوا – لفرط دهشتهم – آخر حركة "رسمية" لذلك البنيان النحيل الذي ما كف يوما عن الحركة: يتحامل على نفسه ليرد التحية و هو بين الحياة و الموت.

و بلغت الساعة العاشرة منتصفها حين إذان القضاء بختام تلك الحياة، و سري النبأ بطيئا بطيئا كأنه ينوء بحمله الثقيل، و خف الوزراء إلى الدار يمشون كالاشباح بين حجرات غارقة في الضياء.

و عجت الدار بالنشيج المختنق و انفجر النشيج بعد مغالبة لم تفلح، فترامي في جوانب القصر رجال أشداء، جبابرة من جنود الحرس في موكب القائد المسجى على فراشه. تعودوا أن يذهبوا به وأن يعودوا به من حيث ذهبوا، و علموا انهم عما قليل سيذهبون به إلى حيث لاعودة، و سيذهبون به ولا يسمعون له صوتا، و قد عهدوا له – حيث ذهب – صوتا مسموعا يتجاوب صداه في الدنيا، و يصغي إليه المنصتون في كل مكان.

من قال إن النقيضين لا يجتمعان فليمدد بصره إلى دخيلة النفس البشرية في ساعة من ساعات الهول: تصدق ولا تصدق، و تعجب و لا تعجب، و تحس الهول و كأنها لا تحسه، أو كأنها تتحداه بالأمل الذي يتراوح فيها بين الضمور و الظهور.

الفصل الرابع: مقارنة بين غاندي و جناح

إن المقابلة بين العظماء أنفع الدراسات النفسية، فهي دراسة نافعة لفهم حقيقة الإنسان و فهم حقيقة الجماعات، و نافعة لكل من يعنيه أن يحسن تقدير الأعمال الكبرى و الدعوات الشاملة، و نافعة لمتعة العقل و توسيع آفاقه.

و لذلك نلاحظ أن اللكتاب و الباحثين يهتمون بهذا النوع من الدراسة و يقارنون بين الزعماء و العظماء من نوع واحد أو أنماط متعددة و يوازن بين الأبطال و العباقرة من عصر واحد أو عصور مختلفة، و هكذا يسهلون لنا فهم حقيقة من الحقائق التي تتعلق بهم أو قضية من القضايا التي سبق لهم أن يعالجوها، و كذلك يبرزون لنا أهمية في أمر بالنسبة إلى صاحبه، سواء كان من معاصريه، أو ممن سبقوه.

و قد تكون الموازنة بين عظيمين أقل دقة و صعوبة إذا كانت المفارقات بينهما كثيرة، سواء في صفاتهما و مواهبهما، أو في نشأتهما و ثقافتهما، أو في أفكارهما و نظرياتهما، أو في العصر الذي عاشا فيه، و لك يتعسر الأمر إذا كان العظيمان اللذان يوازن بينهما سواء في صفاتهما و مواهبهما الكثيرة، و نشآ نشأة مماثلة، و تثقفا ثقافة واحدة، و عاشا في عصر واحد.

و الموازنة بين غاندي و جناح من أصعب الدراسات المقارنة، فإن المماثلات بينهما كثيرة، و المفارقات قلة قليلة، و مع ذلك البعد بينهما طويل، و الفرق بينهما كبير، أحدهما مهاتما الهند، و الآخر قائد الباكستان.

و مع أن الموازنة بين غاندي و جناح أمر عسير، و لكنها مهم جدا، تهم غالبا كل باحث و مؤلف يكتب عنهما أو عن سياسة الهند و قضية الباكستان. فإن الموازنة بين الزعيمين الهنديين لا يبرز الصفات المتناقضة المميزة التي يصف بها الزعيمان فحسب، بل إنها تكشف الغطاء عن أسرار جزء مهم من التاريخ في شبه القارة الهندية و رموز قضية قد حير العالم مصيرها.

فمثلا كتب ألان كامبل جونسون عن مهمة اللورد مونتباتن في القضية الهندية، وكان جونسون من مديري مكتبه، و من أقرب الناس صلة بزعماء الهند و رؤساء الحكومات فيها:

"كان غاندي مطبوعا على غريزة مدهشة تلهمه بث الأفكار بين الجماهير تعززها اجتماعاته بهم مباشرة في مجامع الصلوات التي يشجعها كما تعززها مخالطته الواسعة للناس في جميع مناحي الحياة. أما جناح فهو على خلاف ذلك يستمد نفوذه من القيادة على بعد، فهو لا يتزلف للجماهير و لا يكثر من مخالطتها، و قد مزج بين التدبير المرن المصقول في جزم و دقة و بين القدرة على الانتفاع من أغلاط خصومه بإرادة من حديد و نفاذ إلى الغاية الموحدة التي لا ينحرف عنها، و أنه

لظاهرة فذة في القضايا الكبرى: نادى بالباكستان و هو في الستين، و حققها و هو في السبعين."[1]

و كذلك يوازن بين هذين الزعيمين بيفرلي نيكولاس، فيقول: إن الفرق بين جناح و السياسي الهندي هو الفرق بين الجراح و الساحر."[2]

و العقاد ليس باستثناء في هذا، فهو أيضا عنى بالموازنة بين هذين العظيمين، و لكن ليس لسبب أنها تكشف عن سر من أسرار التاريخ، بل إنها تكشف عن سر من أسرار فلسفة التاريخ، و في هذا يقول العقاد:

"و ما من مقابلة أو موازنة بين عظيمين تخلو من منافعها الفكرية و العملية ... إلا أن الموازنة بين الزعيمين الهنديين تذهب بنا إلى مدى أوسع جدا من الموازنات الشائعة بين الزعماء من قبيل واحد أو من أنماط متعددة، لأنها تكشف لنا النقاب عن سر من أسرار التاريخ طالت فيه المناقشة، بل طالت فيه المكابرة، و لا تزال تطول.

هل المرجع في التاريخ إلى ضمير الإنسان، أو إلى المادة التي توزن حينا بميزان الطعام و توزن حينا بميزان النقد في الأسواق؟

[1] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 113

[2] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 20

و المقابلة بين الزعيمين الهنديين تجيب عن هذا السؤال جوابا يحار في نقضه من يستضعفون عمل الضمير و يرجعون بكل عامل من عوامل التاريخ إلى " المادة " بمختلف الأسماء."[3]

إلى هذه الغاية تهتم العقاد بالموازنة بين غاندي و جناح. و إذا يوازن فيخرج منها بعقيدة أن الفارق المهم بينهما هو المنهج الفكري والعقيدة، و كل اختلاف بينهما أو بين أعمالهما بل بين شخصيتهما مرهون لهذا الفرق. يقول العقاد:

"ها هنا رجلان ولدا في إقليم واحد، و هو إقليم راجكوت. ودرجا في جيل واحد، و هو الجيل الذي نشأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. و تكلما في صباهما بلغة واحدة و هي اللغة الكوجراتية و نبتا في طبقة واحدة، و هي الطبقة الوسطى المتيسرة التي يغلب عليها اليوم اسم البرجوازية. و تعلما على نسق واحد، فدرسا القانون في الجامعات الإنجليزية، بعد إتمام الدراسة الثانوية في البلاد الهندية، و السن بينهما متقاربة، بل التكوين البدني فيهما يتعارت إلى الدقة و النحافة، و إن كان أحدهما إلى الطول و الآخر إلى القصر. و اشتغلا بالمحاماة أولا ثم اشتغلا بالسياسة في ميدان واحد و هو ميدان القضية الهندية أمام الاستعمار البريطاني كما يتولاها حزب المؤتمر.

ثم حكمت العقيدة الدينية حكمها فإذا بكل منهما في طرف من طرفين لا يلتقيان.

[3] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 184

و ليس المفترق بينهما في برامج السياسة التي تتغير بتغير الحكومات و الأحزاب، بل هو مفترق في أطوار الفكر و المزاج كأنهما ينتميان إلى أبعد الأقاليم و البيئات، و لم ينتميا قط إلى إقليم واحد و طبقة واحدة، أو يتكلما في المهد و الصبا بلغة واحدة و يتخرجا في الشباب و الرجولة من معاهد تعليم واحد. هذا يقاطع الحضارة، و ذاك يستزيد من الحضارة.

هذا يرى القوة في تحطيم الصناعة الكبرى، و ذاك يرى القوة في تأسيس هذه الصناعة الكبرى و تدعيمها. هذا يعول على المقاومة "السلبية" على شرعة الأهمسا، و ذاك يعول على التنظيم و التأهب بالجماعات المنظمة للعمل في حينه، و كما تقتضيه دواعيه.

هذا يسميه قومه "المهاتما" و ذاك يسميه قومه "القائد الأعظم"، و في مفترق التسمية مفترق المسميات، كأبعد ما يكون الافتراق.

لم يختلفا قط إلا في عقيدة الضمير، و لم يتفقا في شيء قط بعد ذلك، حين دخلا في ميدان العمل الحاسم، و كلاهما مخلص لعمله بغير جدال. و الرجلان في هذا مثالان صادقان للأمتين: أمة الهند الكبرى من البرهميين، و أمة الباكستان الناشئة من المسلمين."[4]

[4] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 184-185

يعتقد العقاد أن الاختلاف في العقيدة و الفكر بين الزعيمين هو الذي لعب دورا مهما في قضية الهند و الباكستان، لا غير. فإنه لم تكن الوحدة الجغرافية هي التي فعلت فعلها الأكبر في نشأة الباكستان، فإنها شطران من الأرض بين الشرق و الغرب يفصلهما أكثر من ألف ميل.

و لم تكن الوحدة الاقتصادية هي التي فعلت فعلها الأكبر في نشأتها، لأن السكان في شرقها يزدحمون كل سبعمائة في الميل المربع، و لا يزيدون في غربها على مائة في الميل، و محصولاتها الرائجة تصنع في غير مصانعها، و منها جهات لا محصولات فيها و لا صناعات، وجهات تتعلق مرافقها بالشقة الأخرى من الهند البرهمية.

و لم يكن جنس السلالة هو الفارق بين الهند و الباكستان، فإن محلل الدم لو أغمض عينيه و حلل دم ألف من أهل الباكستان، و دم ألف من أهل الهند لخرج من التحليل بنتيجة متقاربة، أو لكان الفارق بينهما كالفارق بين ألف من الباكستان و ألف أيضا من الباكستان.

و ليس في وسع أحد أن يبرز عاملا واحدا مفسرا للتاريخ كما برز عامل العقيدة وحدها في الباكستان، فهو العامل الموجود حيث تختفي جميع العوامل أو توجد على

ضعف و تفرق، و هو العامل الذي قام وحده في وجه كل العوامل، فكان له قضاؤه الذي لا مرد له و لا معقب عليه.[5]

[5] عباس محمود العقاد: القائد الأعظم محمد علي جناح، ص: 186

خاتمة

حينما كنت في الفترة الأولى من شهادة ما قبل الدكتوراه، اتفق لي أن أكتب مقالة عن عباس محمود العقاد في ضوء عبقرياته، فراجعت مؤلفات العقاد، و فوجئت عندما علمت أن العقاد كتب عن غاندي و جناح. فعزمت أنني سأحصل على الكتابين و أجعلهما موضوع دراستي لرسالة شهادة ما قبل الدكتوراه. و قد فعلت ما عزمت، و هذه الدراسة نتيجتها. وهي ليست أكثر من محاولة لفهم غاندي و جناح من وجهة نظر العقاد.

كنت ظننت في بادئ الأمر أن العقاد ربما كتب عن غاندي و جناح رعاية لعلاقة الهند مع مصر، و رعاية للمماثلات في أوضاع البلدين السياسية و الاقتصادية بسبب الاستعمار البريطاني، أو أنه كتب لمرجع من مراجع السياسة و التاريخ، حتى قرأت الكتابين فأدركت أن ظني كاذب، لأنه، كما يصرح، لم يؤلف كتابه عن غاندي رعاية لدولة الهند، و لا لمرجع من مراجع السياسة، و إنما ألف عنه "بحقه الشخصي أو بحق عظمته"، و كتب عن جناح كذلك "بحقه الشخصي و حق عظمته و مغزاها الخالد في تاريخ الإنسان".

و محتويات الكتابين تصدق هذا، فهي تركز على بيان وجوه العظمة الإنسانية في القائدين غاندي و جناح، و لا تبحث عن السياسة و الحركة الوطنية إلا بقدر لا بد منه في بيان شخصيتهما و سرد ملامح عظمتهما.

و سبب ذلك أن العقاد معجب بالإنسان الفرد و يهتز بكل وجدانه أمام العبقرية الفردية. إنه يؤمن بالإنسان العبقري، و يؤمن بأن الحضارة من صنع العباقرة أولا و أخيرا، فهم الذين يصنعون التاريخ. و العقاد رجل ذاتي، ينفعل أولا ثم يفكر بعد ذلك. و هو يعتقد أن العباقرة الذين يتحدث عنهم لا يعرفون الضعف، و لا يقعون في الخطأ، و هو معجب بهم حتى في المواقف التي تلوح للآخرين خطأ، أو على الأقل تبدو مواقف فيها شبهات. و نجد كل هذا في "روح عظيم" و "القائد الأعظم".

"روح عظيم" ليس بسجل حوادث و لا تقويم أيام، و لكنها مرآة صغيرة يبدو فيها مناط العظمة من "مهاتما الهند".

و غاندي في رأي العقاد عظيم أثرت في تكوينه عوامل شتى. ولدتها أم كانت تصوم في معظم الأيام، ونشأ في أصلح أسرة يخرج منها قديس مثله، و تثقف بثقافة جيدة في الهند، و اطلع على التراث الهندي الروحي خلال دراسته في إنجلترا، فأثرت فيه روحانية الهند إلى حد كبير.

و الأمر الذي لا يمكن أن تفهم عبقرية غاندي بمعزل عنه هو عقيدته الجينية. فغاندي، في رأي العقاد، لا يدين بالبرهمية و لا بالبوذية، بل إنما يدين بالعقيدة الجينية. و هذه العقيد قد أثرت في تكوين شخصيته و أسلوب حياته و سياسته أكثر من أي عامل آخر، فقد ورث دواعي الثورة، و دواعي الإصلاح الاجتماعي و الاقتصادي، و آدابه الروحية من عقيدته. "و إن الواقع الذي لا مراء فيه أن مبادئ غاندي جميعا مستمدة من العقيدة الجينية، و إنه لم يدع إلى خطة واحدة في الإصلاح الاجتماعي أو السياسي لا ترد بجملتها و تفصيلها إلى تلك العقيدة. و كل ما استحدثه فيها من الخطط العصرية فهو من تصرفه و وحي عبقريته، و نزعة مزاجه و تفكيره، على حسب الحوادث و المناسبات." و إن غاندي بروحانيته قد حفز الهند إلى عمل من أعظم أعمالها في تاريخها الطويل، و قد أتى بخارقة لم يأت نظراؤه بأعظم منها في جميع أطوار التاريخ.

من خلال الدراسة ندرك أن غاندي لم يكن سياسيا في سياسته، فإنه لم يعمل في السياسة بأساليب سائر الساسة، بل عمل فيها بأساليب القديسين. و كانت الأهمسا أو المقاومة السلبية رأس ماله في كل خطة يواجه بها قومه، أو يواجه بها الدولة البريطانية، أو يواجه بها كائنا من كان ممن يخشى منهم خطر بلاده.

بدأ غاندي حياته العملية في أفريقيا الجنوبية، و التي وصلت إلى ذروتها في حركة الهند الوطنية، و إخلاصه في جميع مراحلها فوق كل شبهة. هو مخلص في عقيدته

و في سياسته غاية ما يستطاع من إخلاص، و ليس في طاقة الإنسان وراء هذا الإخلاص غاية لمستطيع. و العقاد يذكر أن هناك من يتهمه بالمكر و المداجاة في سياسته، ولكنه يرى أنه من السخف أن يقال إن الرجل وقف حياته للأهمسا و نفض عنه فتن الحياة و شهواتها ليروج السياسة الطائفية من وراء هذا الستار.

و هذه خلاصة نظرية العقاد في غاندي التي تخرج من كتابه، و هي خلاصة ما تناولته في هذه الدراسة عن غاندي كذلك.

و أما الكتاب "القائد الأعظم" فهو ليس بمختلف عن "روح عظيم". هو أيضا يتناول ملامح العظمة الإنسانية في محمد علي جناح، و قد كتبه العقاد، لأن الكتابة عن القائد الأعظم واجبة في رأيه، لأنها تجلو للناس، و للشرقيين خاصة، صورة من صور العظمة الإنسانية.

إن محمد علي جناح رجل عظيم نادر المثال بين عظماء الرجال، و محور عظمته في نظر العقاد خصلة نادرة جدا في قادة الشعوب، و هي الصدق الصريح في جميع الأقوال و جميع الأحوال. هو سياسي لا يبطن غير ما يظهر، و لا يعني القليل و هو يجهر بطلب الكثير، و لا يدخر للصفقة الأخيرة مساومة لم يكشفها من الصفقة الأولى، و هو يقود أتباعه بغير خداع و لا تنويم. كان جناح حقا لظاهرة فذة في القضايا الكبرى، نادى بالباكستان و هو في الستين و حققها و هو في السبعين.

نشأ جناح في أسرة برهمية الأصل، أسلم أحد أجداده منذ قرنين. و تعددت نظم التربية التي تفتح عليها ذهن جناح الصغير قبل حصوله على إجازة التعليم الثانوي في السادسة عشرة من عمره. تعلم في مكتب أولي من المكاتب التي تتابع النظام المألوف في تعليم الصغار في الشرق منذ عشرات القرون، ثم تعلم في مدرسة حديثة تابعة لجماعة إسلامية، ثم تعلم في مدرسة حديثة تابعة لجماعة مسيحية، ثم تعلم القانون في إنجلترا وكان ذهنه من أذهان الفقه والمحاماة والفصاحة الخطابية طبعا و فطرة، لا تعلما و مراسا بالصناعة. اشتغل جناح بالمحاماة، و نال شهرة مرموقة في شغله، و لكنه انتقل إلى السياسة و المقاومة ضد الاستعمار البريطاني، و قام بدور مهم في تحرير الهند و إنشاء الباكستان.

تنقسم سياسة جناح إلى مرحلتين، مرحلة يقاوم فيها جناح الاستعمار البريطاني في إطار حزب المؤتمر الوطني الهندي و يدافع عن الهند بصفتها أمة واحدة. و لكن هذه المرحلة من حياة جناح قد انتهت سنة 1915، و أن اليقين بإمكان العمل على خدمة الهنود جميعا في هيئة واحدة هي هيئة المؤتمر قد تزعزع منذ تلك السنة، ثم نشأت المرحلة الثانية التي انعقدت فيها النيات و العزائم على استقلال الباكستان، و لكنها لم تنشأ دفعة واحدة منذ الخطوة الأولى، فقد بقي جناح بين الحربين العالميتين يحاول التوسط و يعتقد أن خدمة الهند جميعا مستطاعة بالتوفيق بين الهيئتين، و أن الاتفاق على الضمانات المتبادلة يرضي البرهميين و يرضي المسلمين، و مساعيه في هذا المجال جعلته رسول الوحدة الهندوسية الإسلامية، ، و لكن الحرب العالمية

الثانية قد أوشكت أن تقضي على البقية الباقية من سلطان الاستعمار و أن تقيم الحكم الهندي في مكانه على مدى سنوات معدودات، فتحول البحث من الاتفاق على مقاومة المستعمر إلى الاتفاق على قواعد الحكم الوطني و ضماناته، فتبين مع الزمن أن الاتفاق على الفروض أيسر من الاتفاق على الحقيقة، كلما اقتربت من الواقع الماثل للعيان.

و من خصلة جناح أنه في المرحلتين من حياته السياسية لا ينزل عن صدقه و صراحته. و هذه الصراحة تلزمه سواء يدعو إلى الوحدة الوطنية أو يدعو إلى انفصال الباكستان. فالصدق و الصراحة مفتاح لشخصيته و عنصر من مبادئ جناح يؤثر جميع أعماله و قراراته. و هذه الصفة لا تضره في أي قضية هو بصدد معالجتها. و هذه خلاصة ما لاحظنا في البحث عن القائد الأعظم.

و نلاحظ من خلال المقارنة بين المهاتما غاندي و القائد الأعظم جناح أن الفارق بينهما هو منهج الفكر و العقيدة، غاندي يعمل في السياسة بقداسته و روحانيته الهندية، و جناح يعمل في السياسة بصدقه و صراحته. و أن الاختلاف في العقيدة و الفكر بين الزعيمين هو الذي لعب دورا مهما في قضية الهند و الباكستان، لا غير. و ليس في وسع أحد أن يبرز عاملا واحدا مفسرا للتاريخ كما برز عامل العقيدة وحدها في الباكستان.

قائمة المصادر و المراجع

1 عباس محمود العقاد، روح عظيم المهاتما غاندي، شركة فن الطباعة، مصر

2 عباس محمود العقاد، القائد الأعظم محمد علي جناح، دار الهلال، مصر

3 عصام عبد الفتاح، المهاتما غاندي: محرر المقهوري، دار الكتاب العربي، 2008

4 محى الدين رضا، ابطال الوطنية: مصطفى كامل, محمد فريد, سعد زغلول, مصطفى كامل, مهاتما غاندى، مكتبة القاهرة الكبرى، 1923

5 محمد كاظم، الشمس الحزينة: حياة غاندى، دار الأهرام للنشر، 1970

6 هبة جمال و جمال قطب، المهاتما غاندى، مكتبة مصر، 1998

7 محمد كامل حسن المحامى، المهاتما غاندى، المكتب العالمى للطباعة والنشر والتوزيع

8 غسان سلق، المهاتما غاندى، مكتبة القاهرة الكبرى

9 المهاتما غاندي، قصة تجاربي مع الحقيقة: سيرة المهاتما غاندي تعليمه، دار العلم للملايين، 1964

10 فتحي رضوان، المهاتما غاندي حياته وجهاده، مطبعة المجلة الجديدة، 1934

11 محمد كاظم الطريحى، حياة غاندى، القاهرة دار الاهرام، 1948

12 زراع الحب مهاتما غاندى، 1998

13 راجيندرا براساد، عند قدمى غاندى، منير البعلبكى (مترجم)، دار العلم للملايين، 1959

14 زكية حسن، غاندى، مطبعة عبد الكريم عبد المجيد، القاهرة، 1922

15 سيف الدين الخطيب، غاندى، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، 1991

16 على شعيب، غاندى، دار الفكر اللبنانى، 1992

17 غاندى بطل النضال السلمى، دار الشرق العربى

18 فتحى رضوان، غاندى أحمد عرابى مصطفى كامل محمد فريد، الهيئة المصرية العامة للكتاب

19 قدرى قلعجى، غاندى ابو الهند، دار العلم للملايين، بيروت، 1959

20 لويس فيشر، غاندى الثائر القديس : حياة الزعيم القديس الذى دك بالروح الاعزل قلاع القوة والاستعمار

21 صوفى عبدالله، غاندى: موهاندس كرمشاند، دار الهلال، القاهرة، 1950

22 سلامه موسى، غاندى والحركة الهندية، سلامه موسى، سلامه موسى للنشر والتوزيع، 1962

23 سهيل زكار، (مترجم) ولبرت ستانلى، محمد علي جناح مؤسس الباكستان، دار قتيبة، 1988

24 حسين الهمدنى، القائد الاعظم محمد على جناح، الملحق الصحفى، سفارة باكستان، القاهرة، 1948

25 محمد حسن الاعظمى، القائد الاعظم وقصة الباكستان، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة

26 احمد نديم قاسمى، صحيفة قائد اعظم نمبر، مجلس ترقى ادب، 1976

27 شفيق نقاش، محمد على جناح القائد الأعظم، دار الكتاب للتوزيع، القاهرة،1952

28 أديب مصلح، المهاتما غاندي: السياسي القديس، سلسلة النوابغ 1، منشورات المكتبة البولسية، بيروت 1992

29 جماعي، غاندي: صانع اللاعنف، مركز اللاعنف وحقوق الإنسان، بيروت 1996

30 ندره اليازجي، "العنف واللاعنف"، الأعمال الكاملة، دار الغربال، دمشق 1998

31 ديمتري أفييرينوس، م. ك. غاندي بين القداسة والسياسة ـ دراسة في المنحنى الشخصي لحياة مثاليٍّ عملي، موقع معابر على الإنترنت، يوليو 2012

32 محمد نمر مفارجة، غاندي و المقاومة السلمية، دنيا الرأي، فبرائر 12، 2012م

33 موفق مصطفى السباعي: هل الثورة السلمية لوحدها كافية لإسقاط الحكم الديكتاتوري، موقع مسلم نت ، ينائر 2012م

34 سليمان بن صالح الخراشي: كيف احتل الإنجليز مصر، موقع صيد الفوائد على الإنترنت، يوليو 2012م

35 يونان لبيب رزق: Al-Ahram: A Diwanof contemporary life، جريدة الأهرام الأسبوعية، عدد، 716، ديسيمبر 2002م

المصادر و المراجع الإنجلزية:

1 Dhananjay Keer, *Mahatma Gandhi*: *Political Saint and Unarmed Prophet* (Bombay, 1973)

2 B. R. Nanda, *Mahatma Gandhi*: *A Biography* (1st ed., 1958; expanded edition, New Delhi: Oxford UP, 1981)

3 Bhikhu Parekh, *Gandhi* (Oxford University Press, 1997)

4 Krishna Kripalani, *Gandhi: A Life* (1968; reprint ed., New Delhi: National Book Trust, 1982) In 1997

5 D. G. Tendulkar, *Mahatma: Life of Mohandas Karamchand Gandhi*(New Delhi, 1951)

6 Raghavan Iyer, *The Moral and Political Writings of Mahatma Gandhi* (New York and Delhi: Oxford UP, 1989)

7 B. R. Ambedkar, *What Congress and Gandhi Have Done to the Untouchables*. 1945, reprint ed., Lahore, 1977

8 Joan Bondurant, *Conquest of Violence*: *The Gandhian Philosophy of Conflict*. Rev. ed., Berkeley: University of California Press, 1971.

9 William Borman, *Gandhi and Non-Violence*, New York: State University of New York Press, 1986

10 Margaret Chatterjee, *Gandhi's Religious Thought*, University of Notre Dame Press, 1983

11 Dennis Dalton, *Mahatma Gandhi: Nonviolent Power in Action*, New York: Columbia University Press, 1993

12 Martin Green, *The Challenge of the Mahatmas*, New York: Basic Books, 1978

13 Martin Green, *The Origins of Nonviolence: Tolstoy and Gandhi in their Historical Settings*, Pennsylvania State University Press, 1986

14 Martin Green, *Gandhi: Voice of a New Age Revolution*. New York: Continuum, 1993.

15 James D Hunt, *Gandhi in London*. New Delhi: Promilla & Co., 1978.

16 Raghavan Iyer, *The Moral and Political Thought of Mahatma Gandhi*. New York: Oxford Univ. Press, 1973

17 B. R Nanda, *Gandhi and His Critics*. Delhi: Oxford UP, 1985.

18 Bhikhu Parekh, *Gandhi's Political Philosophy: A Critical Examination*. London: Macmillan, 1989

19 Nageshwar Prasad, *Hind Swaraj: A Fresh Look*. Delhi: Gandhi Peace Foundation, 1985.

20 K. L. Seshagiri Rao, *Mahatma Gandhi and Comparative Religion*. New Delhi: Motilal Banarsidass, 1978.

21 Christoph Jaffrelot (Ed.) (2005), A History of Pakistan and Its Origins, Anthem Press

22 Prakash Almeida. Jinnah: Man of destiny. Gyan Books, 2001.

23 Akbar S Ahmed, Jinnah, Pakistan, and Islamic Identity: The Search for Saladin (1997)

24 Javed Ajeet, *Secular and Nationalist Jinnah*, JNU Press Delhi

25 Asianand*a, Jinnah: A Corrective Reading of Indian History*, ISBN 81-8305-002-6

26 Patrick French, *Liberty or Death: India's Journey to Independence and Division*. Harper Collins, 1997

27 Ayesha Jalal, *The Sole Spokesman: Jinnah, the Muslim League and the Demand for Pakistan*. Cambridge, 1994

28 "The Father of Pakistan". *The Most Influential Asians of the Century by TIME*. August 23, 1999

29 "Jinnah's speech to the Constituent Assembly of Pakistan". *pakistani.org*. August 11, 1947

محتويات

مقدمة ..... أ

الباب الأول 6

الفصل الثاني: العلاقة بين الهند و مصر في القرن العشرين 7

الوضع السياسي في الهند 7

الوضع السياسي في مصر 14

العلاقة بين الهند و مصر في القرن العشرين.....18

الفصل الثالث: دراسات و مؤلفات حول غاندي و جناح في مصر..22

الباب الثاني 25

الفصل الأول: عباس محمود العقاد و كتابه "روح عظيم" 26

حياة العقاد و آثاره.....26

كتابه روح عظيم 35

الفصل الثاني: نشأة غاندي و العوامل المؤثرة في شخصيته.....38

نشأة غاندي 38

عقيدته.....44

صلاته.....46

مفتاح شخصيته 48

الفصل الثالث: مقاومته العنف و جهاده في سبيل الحرية 53

غاندي في أفريقية الجنوبية.....53
غاندي في الهند.....60
الصوم ومسيرة الاحتجاج.....68
خيبة الاستقلال.....77
الفصل الرابع: إدراك فلسفة غاندي في "روح عظيم".....81
الأهمسا.....81
أساليب اللاعنف.....83
شروط نجاح اللاعنف.....84
المرأة.....84
الباب الثالث.....87
الفصل الأول: خلفية الكتاب "القائد الأعظم".....88
الفصل الثاني: محمد علي جناح كما وصفه العقاد في كتابه.....94
الفصل الرابع: مقارنة بين غاندي و جناح.....143
خاتمة.....150
قائمة المصادر و المراجع.....156